برزخٌ بين الصّبابة والردى
تأليف:
أميرة عبدالله

برزخ بين الصّبابة والردى

تأليف: أميرة عبد الله

تصميم: ديالا اسماعيل

المقدمة:

تتناثرُ الأبجديّةُ وتُرثى الحروف، ويبقى على اللّسانِ عجزُ الكلام، فيبوحُ الفؤادُ بشتّى الكلمات.

أقدّم لكم لوحةً فنيّةً تعكس صدق المشاعر، كُتبت بروحٍ متعبة؛ ففي كلّ نصٍّ كانت تسبقني الدّموع وتملأ تلك الورقة.

كتبتُ نفسي، وجمعتُ بين الهيام والخذلان، خانتني الأبجديّة لكنّي أكملت، وعندما كنتُ أشرف على الاستسلام، كان يدعوني قريني أن أستمر، كان يعتقد أنّي أمتلكُ مفاتيح أفئدة النّاس جميعاً، وأنّه إذا لم يخطَّ قلمي، ستُغلق تلك الأقفال ويموت الجميع صمتاً.

إليكم هذا البرزخ.

الإهداء:

إلى كلِّ من أماتهم طريق المنتصف،
إلى كلّ من يعاني وجد الرّوح، إلى
من أغمض جفونه وتركَ الدّموع تسيلُ
على الوجناتِ، لا تحزنوا لأنّكم ستجدو
أنفسكم هنا.

"أَمَا حَانَ وَقْتُ الرَّحِيلِ؟"

لَمْ تكنْ رسالتي الأولى إليكَ، لطالما حاولتُ في كلِّ ليلةٍ أنْ أُزْجِيَ إليكَ رسالتي، فَلِمَ لَمْ تقرأْها بعدُ؟ ولِمَ لَمْ تنأَ عنِّي بعدُ؟

لقدْ أوجعتني؛ سلبتَ روحي، وأوجعتَ عقلي، وأظمأتَ فؤادي، حتَّى غدوتُ في حيرةٍ منْ أمري. عندما أرمقُ نفسي في المرآةِ أشعرُ أنِّي لستُ أنا؛ تآكلتْ بسماتي، وبدَتِ الغُضُونُ تَرْتَسِمُ على ملامحي.

ما زلتُ طفلةً ترنو إلى الحياة، لكنَّكَ أهلكتَها؛ أهلكتَها بتفاصيلِكَ الكئيبةِ، بتلكَ السَّاعاتِ الَّتي تقضيها وحيدةً وهيَ تنشجُ وتُناجي نفسَها، ظنّاً منها أنَّها مُصابةٌ بوَهْنٍ نفسيٍّ، وبمجيئِكَ إليها في كلِّ ليلةٍ دونَ أدنى هُدْنَةٍ.

ألَمْ ينتهِ هذا العناءُ بعدُ؟ ألَا يكفي الوجعُ الَّذي انتابني؟ أنا لا أريدُ وجودَكَ، عليكَ أنْ ترحلَ عنِّي كَيْ لا أفنى حزناً، عليكَ أنْ تفارقَني وتخلعَ حُكْمَكَ الجائرَ عنِّي إلى الأبدِ. سأقولُ لكَ للمرَّةِ الأخيرةِ: إيَّاكَ والارتجالَ أمامي مرَّةً أخرى!

أميرة عبدالله

"أَتَمَنَّى الشِّفَاءَ"

أمَّا أنا، فثَمَّتَ مَن جعلَ روحي مبعثرةً، وجعلني كالغارقةِ في قاعٍ منَ الآهاتِ والآلامِ؛ هذا الألمُ الرُّوحيُّ الَّذي جعلَ العَبَراتِ تتسلَّلُ منْ جفوني وتركنُ في قعرِ وجهي، حطَّمني وقيَّدني وجعلني كالأسيرةِ أخضعُ لسطوتِهِ. لكنَّ السُّؤالَ: ما الَّذي قادَني إلى هنا؟

وبعدما أجبرتُ دماغي على التَّفكيرِ في الأمرِ الَّذي آلمَ روحي، أيقنتُ أنَّ الانتظارَ هوَ مَنْ جعلني أسيرةً للحزنِ؛ فبِطَبْعي، أنا أمقتُ ما يُسمَّى الانتظارَ، وأشعرُ وكأنَّهُ يشبهُ غشاءَ التَّامورِ إذا توقَّفَ عنْ عملِهِ، فتركَ القلبَ يتمدَّدُ متمرِّداً وكأنَّهُ يستجدي الموتَ فلا يجدُهُ.

لكنَّني الآنَ، وفي هذهِ اللَّحظةِ القاسيةِ، أجدُني وبكلِّ هشاشتي مجبرةً على تجرُّعِ الانتظارِ؛ فقدْ يئستُ منْ شفاءِ روحي، وخضعتُ لعذابِ الألمِ، وسأبقى هكذا إلى حينِ يأتي المُنتَظَرُ، أوْ تخرجُ روحي المتألِّمةُ منْ جسدي، وهنا حتماً سأشفى! فهنيئاً لِروحٍ ممتزجةٍ بالآلامِ، ستبقى على عهدِ الوجعِ إلى حينِ اللِّقاءِ، أوْ إلى أنْ يضمَّني القبرُ.

"إلى المجهولِ"

هذهِ أنا، لم أصنعْ شيئاً سوى أنّني مضيتُ أقتفي خطايَ وحيدةً؛ هجرتُ كلَّ ما يشبهُني، وترجَّلتُ نحو ذاكَ المعلومِ المجهولِ. قيَّدتُ أجنحتي، وحزمتُ حزني وآلامي في حقيبةِ الاغترابِ، ثمَّ سرتُ حيثُ لا أدري.

قرَّرتُ الرَّحيلَ والابتعادَ عن أقنعةِ أشباهي، لا أعلمُ أينَ يمتدُّ طريقي، وربَّما سيكونُ مكبَّلاً بالقيودِ التَّراكميَّةِ، لكنَّني سأتمرَّدُ على المألوفِ، أقتلعُ حلمي من جذورِ روحي، وأتركُ فؤادي ورائي، وأمضي نحو حتفي. ربَّما سيكونُ هذا الحتفُ رصاصةً تغتالُني، أو لقاءً يعصفُ بكياني؛ وفي كلا الحالتينِ.. ثمَّتَ جذورٌ قدْ دُفنتْ، وأحلامٌ قدْ قُتلتْ.

أميرة عبدالله

"مُونولُوجْ بَيْنِي وَبَيْنَ المَوْتِ"

في عالمٍ شبيهٍ بدجى واقعي، وجدتُ نفسي غارقةً في يمٍّ يغصُّ بالأسرارِ الغامضةِ، اتِّحادٌ كونيٌّ يضمُّ كلَّ شيءٍ سوايَ. ظننتُ لبرهةٍ أنَّ ساعةَ حتفي قد حانتْ، فلم أجدْ قشَّةً أتَشَبَّثُ بها، وكما عهدتُه دائماً.. كانَ عالماً خالياً من الرَّحمةِ.

في تلكَ اللَّحظةِ، كنتُ أناجي الموتَ، وأرقبُ نهايتي بكاملِ انكساري. كانَ مشهداً سريالياًّ أن ترى كائناً يتلذَّذُ بمشاهدةِ روحٍ تُنزَعُ وهيَ في ذروةِ مخاضِها؛ لكنَّ لِساناً لم ينطقْ، وعيناً لم تُبصرْ. أمَّا أنا، فما زلتُ أرقبُ المأساةَ، وفي فؤادي غصَّةٌ وتوقٌ لِلرَّأفةِ؛ لكنَّ ما انقضى قد انقضى، ولا شيءَ يعودُ إلى سالفِ عهدِهِ.

فلتتوقَّفْ بنا عقاربُ الزَّمانِ هنا.. فقد تآكلْنا بملءِ الصَّمتِ، والسَّلامُ على أفئدَتِنا حتَّى يئنَّ أوانُ رحيلِها.

"مراودةٌ تقتلني"

منذُ شهورٍ فقط، غبتَ عني، لم أعدْ أتلقّى رسائلكَ التي تُنشي فؤادي، رحلتَ تاركاً فجوةً في عمقِ روحي. أحنُّ إليكَ يا مَن سكنتَ عمري؛ لهمساتٍ في أذني كنتَ ترويها، لصوتكَ الشبيهِ بترانيمَ ملائكيةٍ، لحضنكَ الدّافئ الذي يحتويني، ولحنانِ ذراعيكَ حينَ تلتفُّ حولي.

اشتقتُ لجرحٍ عادَ إليَّ بعدَ رحيلكَ، آهٍ كم آلمتني! مَن أنا فيكَ بعدما خذلتكَ أقداري؟ هل من أحدٍ أخذَ مكانتي في شغافِ قلبك؟ تستيقظُ على رسالةٍ من أحدهم بدلاً مني؟ وهل هناك مَن احتوى خيبتكَ؟ أهناكَ مَن يروي ظمأكَ لي؟ أو مَن يحتضنكَ كما كنتُ أفعل؟ مَن يمسحُ دمعكَ عني؟ مَن تحنُّ للقائه غيري؟

يا ويلتاه! الفؤادُ يبكي لأجلكَ، الرّوحُ تتمزّقُ للقياك، العيونُ تذرفُ دمعاً لا يتوقفُ، عقلي يريدكَ، صورتكَ ما زالتْ مرسومةً في مخيّلتي، ونظراتكَ ما زالتْ تجذبني.

آهٍ من لوعةِ الحبِّ والفِراق! أتذكّرُ كم كافحنا لنبقى؟ كم تألّمنا لنكونَ سويّةً؟ لكنَّ الحياةَ لعبتْ دورَ الشّيطانِ وأجادتْ تفريقنا.

ما زلتُ أتذكّركَ وأشعرُ بدقاتِ قلبي تخرجُ من مكانها، كلُّ يومٍ تُعادُ ذكرياتنا في ذاكرتي، أرى ما الذي حدثَ بالسّاعاتِ والدّقائقِ والثّواني.

يا ليتني أستطيعُ إيقافَ الزّمنِ لأعودَ إلى أوّلِ مرةٍ قلتَ فيها "أحبّكِ"؛ يا ليتنا ابتدأنا من الفِراقِ إذن لَختَمنا بحرٍ من الهوى! ليتني وردةٌ في بستانكَ، أو عصفورةٌ في قفصكَ، أو رسمةٌ في غرفتكَ، أو طيفٌ بجوارك. ما زلتُ أحلمُ بكَ في كلِّ ليلةٍ عسى حلمُ اللّقاءِ يحدثُ، وإلى ذاكَ الوقتِ أقولُ: كيفَ حالكَ بعدي يا مَن أحببتني ثمَّ تركتني آخذاً معكَ أشلاءَ وهمي؟

أميرة عبدالله

"حلمُ اليقظة"

أذكرُ لقائي الأولَ بكَ، حينَ دخلتَ بكبرياءٍ هادئٍ؛ نظرتُ إليكَ بنظرةٍ عابرةٍ، وفجأةً شعرتُ بنبضاتِ فؤادي تتسارعُ كلما التقت عيونكَ بعينيَّ.

تساءلتُ في نفسي: "مَن يكونُ هذا؟"

أبعدتُ الأفكارَ عنّي لأعودَ إلى ذاتي، لكن بقيت صورتكَ مرسومةً في مخيّلتي، وحينَ أراها أغمضُ مقلتيّ، وأتحسسُ شغافَ قلبي، وأطوّقُ نفسي. شعورٌ غريبٌ انتابني، وهواجسُ تراودُ خيالي، وعنادٌ يحيطُ برأسي ليجبرني على تذكركَ؛ مضى ذاكَ النّهارُ ولا أدري مَن أنا.

في اليومِ الثّاني، كانَ لقاؤنا صدفةً، فكنتُ كسمكةٍ عادت إلى الحياةِ بعد جفافٍ. وعندما ألقيتَ التّحيةَ عليَّ، راودتني فكرةُ احتضانكَ، لكنّي أوقفتُ نفسي؛ وحينَ ابتعدتَ، ذرفتْ عيناي الدموعَ شوْقاً وحرماناً.

لم أجد ما يوقظني من غيبوبةِ حضوركَ، فأغلقتُ عيوني والألمُ يسكنُ في جسدي، وراحَ الحلمُ بكَ يتمكنُ منّي.

رأيتُ نفسي وإيّاك في صمتٍ كاملٍ؛ لم تفعل شيئاً سوى أن اقتربتَ منّي وأخذتني إلى ذراعيكَ، هناك.. حيثُ السّعادة والأمان. لم أبتعد عنكَ، وحينَ طبعتَ قبلةً عذبةً على شفاهي، أذبتني خجلاً، فبقيتُ أحدّقُ بكَ، والشّعورُ بأن أتمسّكُ بكَ ولا أفلتكَ لا يغادرني.

وهنا.. استيقظتُ! ضحكةٌ مرسومةٌ على وجهي، وأنينٌ يتردّدُ في روحي؛ علمتُ حينها أنّي سأبقى أفتقدُ تلك الحنيّةَ، ومهما فعلتُ فلن أحظى بملجأٍ يأخذني بينَ ذراعيهِ.. فعدتُ مستسلمةً لأحلامِ اليقظة، رُغم أنّهُ جرحٌ لا يندمل.

أميرة عبدالله

"شبحُ الحربِ"

في زمانٍ لم يكنْ كأيِّ زمانٍ، حينَ غدتِ الحياةُ حروباً داميةً تقتلُ الفؤادَ.. لم يعدْ أحدٌ كما كانَ، تغيّرَ العالمُ وكأنَّ كلَّ ما فيهِ ليسَ سوى أشباحٍ تتآكلُ في ما بينها. لم أعدْ أرى شيئاً، فهناكَ سوادٌ طغى على المدى، عالمٌ محاطٌ بشتّى أنواعِ الدّمارِ، يأسٌ يقتحمُ الأيامَ، عبثيّةٌ تقتلُ الأحلامَ، ونزيفٌ من الدّماءِ يلتهمُ الأرضَ. الوجوهُ شاحبةٌ، والأفئدةُ استبدلت بالقسوةِ وكأنّها جُردت من إنسانيّتها، فُتحتِ الأفواهُ وبدأَ الصّراخُ يعلو شيئاً فشيئاً: "مَن نحنُ؟" أظنُّ أنّنا أصبحنا أجساداً لا روحَ فيها، كجثثٍ هامدةٍ تنتظرُ أن يضمّها التّرابُ، نحبو دونَ دموعٍ، وفي عقولنا مشاهدٌ محفورةٌ في أعماقِ الذّاكرةِ لا نستطيعُ البوحَ بها، فنحنُ في زمنٍ حتّى الصّمتُ حُرِمنا منهُ.

سُلبتْ حريّتنا بأنيابِ الطغيانِ، غُيّب آباؤنا، ورحل أطفالنا، ولم يكنْ أمامنا خيارٌ سوى أن نتجرعَ المرارَ معاً، سواءٌ باختيارِنا أم مجبرينَ على فِعلهِ، كنّا كشجرةِ الحنظلِ المرويّةِ بالأسى. ونَسألُ: أينَ كانتِ السّاعةُ الرّمليّة؟ ولماذا توقّفَ الوقتُ؟

لم نعدْ نسمعُ سوى حفيفِ الذّكرياتِ، سافرتْ أحلامنا بعيداً وتركتنا غارقينَ بينَ الشّيءِ واللّاشيءِ، ورمينا حقيبةَ الأملِ في رحلةِ الموتِ. لم نعدْ نرى سوى صرخاتٍ مكتومةٍ، وكأنّنا هاربون من كابوسٍ يقطعُ أوردتنا رغماً عنّا.

أيُّ حربٍ هذه؟ ما زِلنا صامتينَ، وما وراء الصّمتِ لوعةٌ من الآهاتِ مختبئةٌ في أعماقِ روحِنا. لقدْ استُنزفتْ طاقتنا، ونُزفتْ آخرُ قطرةٍ من عروقنا، ونحنُ ننتظرُ السكينةَ التي طالَ غيابُها، فالرّحمةُ لروحنا والسّلامُ.

"ما بيني وبينهُ"

أحبّني بصمتٍ عقابيٍّ، لا أدري ماذا كانَ يفعلُ؛ ربّما أعادَ ترتيبَ مشاعرِهِ، أو إنّما حكّمَ عقلَهُ، لكنّي لم أنسَ الحديثَ الأولَ، والنظرةَ الأولى.
كلُّ شيءٍ أصبحَ مختلفاً الآنَ؛ فؤادي ما عادَ يحتملُ فهو معلّقٌ بينَ الشّيءِ واللّاشيءِ، بينَ الحبِّ والألمِ، والخذلانِ والضّعفِ. أنا في المنتصفِ المميتِ؛ فلا قدرةَ لي على نسيانهِ، ولا قدرةَ لديهِ على أن يحتويني بينَ ذراعيهِ.. وكيفَ يحتويني وهو ليسَ لي؟ أو ربّما كيفَ يفكّرُ بي؟ فآهٍ على فؤادٍ وعقلٍ كانَ لهما من الجوى ما تحتاجهُ الأرضُ للمطرِ!
لا يجتمعُ شوقٌ وخوفٌ.. لكنّهما اجتمعا بي؛ كم تمنيتُ لو أنّي بلا عقلٍ، لكنتُ ذهبتُ إليهِ ومكثتُ بينَ نبضاتِ قلبهِ دونَ تردّدٍ، فلا أحدٌ يعاتبُ مجنوناً. أو لو أنّني كنتُ مصابةً بعلّةٍ في الشّريانِ الأبهرِ والوريدِ الأجوفِ لما كنتُ أحببتهُ، لكنَّ ما حدثَ قد حدثَ، ولا أحدَ يستطيعُ أن يوقفَ هذا الحبَّ؛ فهو حينَ يأتي لا يستأذنُ، بل يسببُ وجعاً وألماً لا ينتهيانِ.
فالرّحمةُ لمن أحبَّ واشتعلت بهِ جمرةُ النّوى والهوى، والسّلامُ على فؤادٍ لا يأتيهِ محبٌّ، وإن حدثَ فيأتيهِ من يستطيعُ أن يكملَ حياتهُ معهُ، ليسَ مثلي؛ إذ ما بيني وبينه خيطٌ رفيعٌ كالشّعرةِ؛ إن اقتربتُ سأقعُ في بحرِ الخوفِ، وإن ابتعدتُ سأقعُ في بحرِ الألمِ، وما بينَ البحرينِ أسمعُ آهاتي.. كرجلٍ بُترتْ يداهُ دون تخديرٍ.

"أودُّ اللّقاء"

عندما كنتُ أحادثكَ، لم أكنْ أعلمُ ما الذي يحدثُ لي؛ كنت أشعرُ وكأنّني في قمّةِ السّعادة، وأنتظرُ مهاتفتكَ لأشعرَ بنشوةٍ عذبةٍ تنتابني بسببكَ.
كنتَ تخفّفُ عنّي حزني وآلامي، وتحتضنني بكلامكَ الذي يجذبني لشدّةِ دفئهِ. ويبدو أنّكَ كنتَ تشعرُ بمثلي، ولكنَّ الصّمتَ كانَ ملجأكَ الوحيد.
وفي يومٍ كنتُ فيه متعبةً، حادثتكَ وأنا على يقينٍ باختياري لتكونَ مَن يواسيني؛ تحدّثنا عن أشياءَ تتصفُ باللّاكتمال، وبعدَ طولِ الحديثِ، كسرتَ ما يُدعى الخجلَ واعترفتَ بِحبّكَ لي.. وهنا هُزمتُ أمامكَ وأعلنتُ لكَ حبّي.
أتعلم كم تعلّقتُ بكَ؟ حاولتُ التّعبيرَ لكنّي فشلتُ، حتّى الأبجديّةُ لم ترَوِ ظمأ شوقي إليك؛ أراكَ في كلِّ تفاصيلي، فأنا أنتَ.. وأنتَ أنا.
أحبّكَ حبّاً عجزَ الحبُّ عن استيعابهِ؛ فأنتَ ملكتني وحكمتَ عليَّ بالشّوقِ إلى حينِ اللّقاء.
لماذا أنتَ؟ ربّما لأنّكَ أسيرُ فؤادي، فخبّنا حكايةٌ سرمديّةٌ عجزَ عن وصفها حتّى البلغاء؛ فأنتَ مرضي ودوائي وبلسمُ جراحي، أنتَ نورُ عتمتي وحبّي الوحيد. لا شيءَ يصفُ هذا الحبَّ السّرمديَّ سوى أن أهديكَ قلبي؛ فهو ينبضُ لأجلكَ أنتَ.
أريدكَ معي؛ لأضعَ رأسي على كتفكَ وأسافرَ في عيونكَ دونَ عودة، أنظرُ إلى بنِّ عينيكَ وأرتجلُ ما لا يستوعبهُ العقلُ علّني أستطيعُ تخفيفَ شوقي، وأقولُ لكَ: "لا أحدَ أهواه مثلكَ"، فهنيئاً لفؤادي بحبّكَ.
أنا سأبقى بانتظاركَ، أعلمُ أنّكَ ستأتي وسأكونُ سجينةَ قلبكَ؛ فسأنتظركَ لتطبعَ قبلةً على وجنتيّ وتأخذني معكَ لنكونَ سجناءَ الحبّ.
لقاؤنا قريبٌ، وإلى ذلكَ الوقتِ.. هذهِ روحي نثرتها لكَ لتكونَ ظلّكَ حتّى نلتقي.

"أَصَمُّ وَلَكِنْ"

هذا أنا، سأخبركم سرًّا عنّي؛ أصمُّ أبكمُ لكنّي سأنطقُ لمرَّةٍ واحدةٍ.
هي فتاةٌ غارقةٌ في بحرٍ مليءٍ بالآهات، يبدو أنَّها وحيدةٌ، لم تفعل شيئًا سوى أنَّها تمسكني بيديها المرتجفتين، لتبدأَ الكتابةَ عن عوالمها السَّوداويَّة.

كنتُ أشعرُ بها وهي تحاولُ كبتَ صوتها داخلَ أحبالها الصَّوتيَّة؛ كانت في حالةٍ يُرثى لها، حتَّى امتلأتُ بمزيجٍ بينَ حبري القرمزيّ ودموعها الساخنة، وحينَ تضعُ حبري على أوراقها المبعثرة، تدهشني بكلماتها الخانقةِ التي تخرجُ من أعماقِ فؤادها.

خُذلتْ هي، نادتْ فلم يجد نِداؤها مجيباً؛ شعرتُ بغصَّةٍ لأجلها، وأبصرتُ روحها فرأيتها تحترق، فكم تمنَّيتُ أن تصرخَ أو تكسرني، لكنَّها بقيت هادئةً. لا شكَّ أنَّ العبراتِ والخذلانَ قد انتشرا في كيانها، وأظنُّ أنَّها تبحثُ عن السكينةِ لجسدها الهزيلِ ووجهها الشاحب.

أصمُّ أنا، ونطقتُ عندما أبصرتُ جراحها تنزفُ ولا تندملُ، فواللّه تمنَّيتُ لو أنّي إنسانٌ لاحتضنتها بكاملِ قوَّتي، وآنستُ وحدتها وضعفها، لكن ليس بيدي حيلةٌ؛ فالسَّلامُ لروحها حتّى تجد الأمان الذي تبتغيه.

"قطعتُ حبالَ عزلتي"

عندما كنتُ في ريعانِ شبابي، جلستُ خلسةً أفكّرُ في ما أفعلهُ، فجأةً رأيتُ دموعاً تذرفُ من مقلتيّ، حاولتُ أن أخبّئها لكنّي ما استطعتُ. رُسمَ سوادٌ أمامي، وشعرتُ بفتورٍ يحتلُّ كياني؛ تربّصتُ بنفسي لأوقفَ التّفكير، لكنَّ لبّي يجيدُ الإرهاق.

مخيلتي رسمتْ لي مستقبلاً ضبابياً، فيهِ يأسٌ يعمّهُ، وفشلٌ في دربهِ، وأرقٌ في سعيهِ. حاولتُ التّأملَ أكثر، لكنّي لم أجد سوى بحرٍ مليء بالآهات، وسؤالٍ يراودُ كياني: أينَ أنا؟ وأينَ محاولاتي الصّغيرة وأوجاعي؟

أريدُ أن أنجو من أعباءِ هذهِ الحياة؛ فهي من أرهقتني وحكمتْ عليَّ بالشّقاء. أصواتُ الصراع الداخلي تحثّني على المسير، وصوتٌ آخر يخبرني بأنّي إذا أكملتُ المسير سأُدفنُ وأنا ما زلتُ على قيدِ الحياة، فماذا تُراني أفعل؟ أأسيرُ؟ أم أبقى بانتظارِ طيفٍ يأخذني؟

جسدي صغيرٌ كطفلةٍ تحبُّ الحياة، أمّا عقلي وفؤادي فكأنّهما لجسدٍ عجوزٍ أمضتْ دهراً في قسوةِ الحياة؛ ما زالَ التّفكيرُ يلتهمُ رأسي، فقررتُ المغادرةَ بصمتٍ حادّ، خوفاً من بقائي هنا لئلّا أصبحَ أسيرةً في عالمِ الضّياع.

أغلقتُ عينيّ مستسلمةً للسكوت، وكانَ المشهدُ الأخير الذي حُفرَ في ذاكرتي، أنني تركتُ خلفي خيباتي فوقَ الأرضِ الجرداء، لأعلنَ انسحابي التام، وغيابي البعيد.

"لستُ بشراً، إنّما"

حربٌ نفسيّةٌ احتلّتني، وفي دماغي ألمٌ لا يُحتملُ، فؤادي ينزفُ خيبةَ الماضي، ودموعي تذرفُ من أجلِ حربٍ اخترتها لنفسي، بعد أن أهدتني الحياةُ مزيجَ أنينها. أحلامي تناديني، لكنَّ ما بيني وبينها كبُعدِ الأرضِ عن السّماء. خائنةٌ هي ذاكرتي، إذ لم تنسَ أشلائي المتناثرة، وأشعرُ أنّي شمعةٌ بقيتْ مشتعلةً حتّى ذابت وسطَ ألمِ الخيط.

أنا ليلٌ دونَ قمرٍ، سماءٌ دونَ شمسٍ، عصفورةٌ دونَ أجنحة، غيمةٌ لا تُمطرُ، وقلبٌ لا ينبضُ، ونبيذٌ لا يُسكرُ، ونارٌ لا تُحرقُ، قصيدةٌ دونَ بحورٍ، قلمٌ دونَ حبرٍ، معزوفةٌ دونَ وترٍ، كاتبةٌ دونَ أبجديّة، قارئةٌ دونَ هويّةٍ، رصاصةٌ دونَ بندقيّةٍ، ثكلى دونَ فقيدٍ، كربلاءُ دونَ مصلّين، جنديّةٌ دونَ قتالٍ، نسيلٌ دونَ جسدٍ، لوعةٌ دونَ إعفاءٍ، جرسٌ دونَ كنيسة، مئذنةٌ دونَ جامعٍ، مُنجبةٌ رُغمَ عذريّتي، وشبحٌ هاربٌ من مدينةِ الأشباح.

أنا التي دُفنتُ وما زلتُ أصرخُ، أنا التي تفجّرتْ أحبالي الصّوتيةُ لشدّةِ خذلاني، لا أعلمُ ماذا أقولُ، لكنَّ جروحي لا تندملُ.. متعبةٌ أنا، وآهٍ إذا ما خانَ الجسدُ!

تلتفُّ حولَ روحي قضبانٌ تحاولُ قتلها، وأنا أريدُ الرّحيلَ بعدما هُزمَ أمامي الماضي والحاضرُ والمستقبلُ. أصبحتُ كالهيروين لا أشعرُ بشيءٍ، كمذنبةٍ بغيرِ خطأ، أو كملاكٍ يعيشُ مع الجانّ. مللتُ من أنايَ، فمتى الوصولُ وأنا وطنٌ دونَ شهداء؟

"قُربي البعيد"

أصرّوا أن أخبرهم لماذا أحببتُ الكتابة، فقلتُ: "بسببِ كاتب". قالوا: "أظنُّ أنّكِ درويشية!" قلتُ: "بل غريبية". قالوا: "ومَن هذا؟" قلتُ: "لن أبوحَ باسمهِ، فأنا أخافُ أن تضيعَ حروفُهُ في الهواء، سأبقيهِ في داخلي، وفي يومٍ ما ستعلمون عمّن أتحدّث".

قالوا: "أيعقلُ كلُّ هذا الحبِّ لأنّهُ كاتبٌ فقط؟" قلتُ: "ربّما لأنني أراهُ توأمَ روحي". قالوا: "غريبٌ هذا الحبُّ رُغمَ أنّكِ كاتبةٌ أيضاً!" قلتُ "الغريبُ أنني ما زلتُ أنتظرُهُ ولم أسْعَ إليه". قالوا: "وهل سيقبلُ رؤيتكِ؟" قلتُ: "ربّما يقبلُ وربّما لا، لكنّني في كلتا الحالتين أراقبُهُ.. فأنا معهُ رُغمَ قربي البعيد".

قالوا: "أمهووسةٌ أنتِ؟" قلتُ: "بلى، وهل حبُّ الكاتبةِ للكاتبِ حرامٌ؟" قالوا: "وما الذي يميّزُهُ؟" قلتُ: "آهٍ.. ربّما الإجابةُ تستغرقُ عمري". قالوا: "نحن نسمعُ"، قلتُ: "لم يكن كاتبي فحسب، بل كانَ سبباً لحياتي، وروحاً لجسدي، ونوراً لدربي.

كتبَ بدموعهِ حكايةَ الخذلان، وبصمتهِ حكايةَ الألم، كتبَ بشغفِهِ حكايةَ الموت، وبإبداعِهِ حكايةَ الانتظار. كتبَ حروفاً من الأبجديّةِ على ورقٍ أصمَّ، كادَ الورقُ يدمعُ لأنّهُ شعرَ برجفةِ الحروفِ تقتحمهُ، ظنَّ أنّهُ وحيدٌ، ولم يعلم أنّي نثرتُ روحي وفكري له" قالوا: "أهذا كلُّهُ؟" قلتُ: "ربّما أكثر! أتدرون؟ كنتُ أتمنّى لو أنّي قلمُهُ الذي يكتبُ به، أو دفترُهُ المليءُ بالذّكريات".
قالوا: "وماذا بعد؟" قلتُ: "حتّى الأبجديّةُ تعجز عن وصفه، لذلك سأكفُّ عن الكلامِ وأهديهِ روحي، وأقولُ لهُ: إنّكَ أسيرُ الإبداع، وإنَّ الكلماتِ تقفُ عاجزةً أمامكَ. دمتَ كاتباً وفكراً وجمالاً، أمّا عنّي.. فدمتَ أنيساً لروحي، ومبدعي الذي أتباهى بهِ، ولا حرمني اللّهُ منكَ يا قمراً ينيرُ عتمتي واللّيل".

"لدغةٌ أنا"

هذهِ أنا، ما زلتُ هناكَ في آخرِ محطّاتِ اليأسِ، يأتي عابرٌ وبيدهِ خيبةٌ يغرزها في تفاصيلي ثم يرحلُ، وما إن تلتئمُ الجروحُ حتّى يأتي آخرُ ويعيدُ الكرّةَ بطريقةٍ أعمق.

صديقٌ يحدّثني عن محبوبتهِ، وصديقةٌ تبوح لي بوجعها، طفلٌ يشتكي أنَّ دميتَهُ ضاعت، أختٌ تشتكي غيابَ الاهتمامِ، وأخٌ يشتكي غيرةَ من يحبّ.. وآذاني لكلّ تلك الهمومِ صاغيةٌ، أربّتُ على كتفِ هذا، أقبّلُ وجنةَ هذهِ، وأحتضنُ هؤلاءِ، ثمَّ أعودُ بقلبٍ تائهٍ.

أرقدُ في سريري، وأذرفُ دموعاً تُحرقُ وجناتي، أضعُ يدي على صدري محاولةً تهدئةَ الشّهيقِ والزّفيرِ، وأسألُ نفسي بلوعةٍ: لماذا لا أحدَ معي؟ مَن أنا ليتركني النّاسُ أجمع؟ ولماذا كلُّ الأذرعِ مبتورةٌ أمامي؟ هل الاقترابُ منّي كلدغةِ عقربٍ؟ وهل الحلمُ بي كمقصلةٍ؟

آهٍ لو تعلمون ما يحتضنهُ فؤادي وما يمزّقُ روحي! ضائعةٌ أنا ما بيني وبينَ نفسي، أقاومُ صراعي الداخليَّ كرصاصةٍ أبتْ أن تخترقَ هدوئي. أشعرُ يوماً بعدَ يومٍ بتمدّدِ غشاءِ التّامورِ من فرطِ التّأثرِ، والآنَ.. وبكلِّ هشاشتي، أبحثُ عن ملاذٍ للسلام.

وصيتي ستبقى معلقةً بانتظارِ وقتها، فالإنسانُ فينا أحياناً يضيقُ بهِ العالمُ الواسعُ لعجزِهِ عن احتوائهِ، ولعلَّ السكينةَ التي أرجوها في ختامِ المَطافِ تكونُ قريبةً.

"اعترافُ المذنبةِ بحبّها"

كانَ يزعجني حزنهُ المستمر، ولم أعلم ما الذي جعلني أراقبهُ من بعيدٍ رغمَ أنَّهُ لا صلةَ تجمعني وإيّاه، كانَ اهتمامي بهِ لأنّي لا أحبُّ أن أراهُ كمن بُترتْ يداه. ويبدو أنّي في لحظةٍ غلبَ فيها الحبُّ عقلي واحتلَّ فؤادي، فدخلتُ حياتهُ وكانَ هدفي سعادتهُ، ولم أكنْ أعلمُ أنّي سأكونُ يوماً جارحتَهُ.. أنا التي أحببتهُ حبّاً لم أحبَّهُ لأحد قط.

كنتُ أحاولُ مواساتَهُ، ووعدتُهُ بأنّي سأبقى لهُ، وبأنّي لن أرحلَ إلى غيره، عقدتُ روحي بروحهِ، واعتصرَ فؤادي ألماً عليه. يا تُرى أينَ أصبحتُ الآنَ فيهِ بعدما كنتُ حياةً له؟ أتُراهُ يراني خاذلةً؟ ربّما صَنعتُ شيئاً آذاه، ولكنَّ واللهِ ليسَ بيدي ما أشعرتهُ بهِ، أُجبرتُ، فخضعتُ، فخذلتُ، فناديتُ.. لكن لم يكن هناكَ مجيبٌ. فكيف يجيبُ وأنا من أبعدتُهُ؟

واللهِ إنّي بعشقهِ متيّمةٌ، وأنهُ مهما حَدثَ وكنتُ مجبورةً على ما فعلتُ، إلّا أنّني تاركةٌ لهُ مكاناً في عمقِ الفؤادِ والرّوح، ومهما أحببتُ، فبمثلِهِ أقسمُ أنّي لن أحبَّ. لا أدري إن كنتُ مُسامَحةً أم لا؟ أفي يومٍ يرقُّ قلبُهُ لي؟

رغمَ أني استهلكتُ طاقتَهُ، شعرتُ بدموعِهِ تسقي رسالتي الأخيرة حينَ خضعتُ للرّحيل، لكنَّهُ ربّما لا يعلمُ بأنّي بكيتُ مراراً، فأنا حاولتُ جاهدةً بأن أبقى وألّا يتغيّر شيءٌ، لكنَّ الظروفَ جميعها وقفتْ بوجهي وكأنّي الوحيدةُ في ساحةِ الجريمة.. أذيتُهُ رغماً عنّي.

هذا ذنبي وأنا غارقةٌ بضميرٍ معذّبٍ إلى ما لا نهاية. يبدو أنّي غدوتُ قبيحةً بعدما تخلّيتُ، فأنا المسيئةُ البريئةُ ولا أحدَ سواي. الجرحُ قائمٌ الآن، فهنيئاً لمن تمسحهُ عنكَ وتدخلُ فؤادكَ وتسكنُ فيهِ، والسّلامُ لفؤادي إلى حينَ يزورني القبرُ.

وصيتي ستبقى عالقةً بينَ أحبالي الصّوتية، لكنّي سأبوحُ ببضعٍ منها: أن تأتي لقبري في ليلةٍ قمراء، ترقدُ بجانبي وتهمسُ: "غفرتُ لكِ"، فأشعرُ بسلامٍ ينتابني وأكملُ نومي الأبدي.. ولأوّلِ مرّةٍ سيكونُ رحيلي هنيئاً بعدَ حديثكَ، فاغفرْ.

"وسطَ الإنعاش"

لو كنتُ يوماً في غرفةِ الإنعاشِ، وأرادوا استئصالَ فؤادي..
لوجدوكَ أنتَ؛ ففي شِغافِ القلبِ أخبّئكَ، بعيونكَ البنيّةِ،
ووجهكَ الأبيضِ المزيّنِ بوجنتيكَ الورديتين. مخبّأً أنتَ
خلفَ قلبي، ومغلقٌ عليكَ بإحكامٍ؛ بجرحكَ وحزنكَ، بحنينكَ
وعمقكَ.

رغمَ بعدكَ عنّي، إلّا أنّني أستمدُّ منكَ الحياةَ وأتغذّى على حبّكَ؛
فشهيقي يدخلُ باسمكَ، وزفيري يخرجُ بحنينكَ.

وقبلَ الاستئصالِ، أريدُ التّأكدَ من أنّكَ بقيتَ فيَّ لآخرِ العمر، أريدُ التّأكدَ من أنّكَ بقيتَ سببَ حياتي، وأريدُ التّأكدَ من أنّكَ ما زلتَ الذي سكنَ روحي، ولن تزولَ حتّى يأخذَ ملكُ الموتِ روحي..
حينها سأودّعكَ وكأنّني ألقاكَ للمرّةِ الأولى.

"رشفةُ احتواء"

زادَ شوقي لرؤيتك، فهل تسمعُ أنّاتَ قلبي؟ أذهبُ إليكَ راجيةً أن تنقذني من عشقٍ بمرارةِ العلقم، وأستحلفكَ باللهِ.. فهل تجيبني؟

أقفُ أمامَ مرآتي وأنا أنظرُ إلى الدّموعِ السّاخنةِ وهي تحرقُ وجناتي، وأسألُ نفسي: كيفَ تخطّينا ذكرياتنا العتيقة؟ وكيف تخلّصنا من حبٍّ التهمَ الذّاكرة؟ وبينما ما زلتُ أنظرُ إلى المرآةِ، اختفى طيفي كالشّمعة، فمضيتُ تعيسةً إلى حيثُ لا أدري، مشوشةَ البال.

إلى متى سنبقى نلتقي وكأنّنا غرباءُ في مدينتنا؟ فلا قبلتكَ على وجنتيّ تُنسى، ولا حضنكَ الدّافئُ الذي احتويتني بهِ يُنسى؛ فلماذا تفعلُ بي هذا؟ أينَ الجوى في فؤادك؟

يا ويلتاه! إلى متى سأبقى أدعو لكَ سرّاً بأن تعيدَ فؤادي الذي التهمتهُ؟ عد للحظاتٍ فقط؛ لأسترجعَ تفاصيلكَ ولأبوحَ لكَ بوجعي، لعلّني أشفى بنظرةِ عينيكَ.

إنَّ أنيني مسموعٌ حتّى السّماءِ السّابعة؛ فلا المواساةُ تعيدني كما كنتُ، ولا حنينُ الرّفاقِ يجدي.. ما يعيدني حقاً هو نظرةٌ لبضعِ دقائقَ إلى بنِّ عينيكَ، ثمَّ عناقٌ أنسى معه من أنا.. ومن أنتَ.

"حياة زائلة"

وفي نهايةِ ألمي الصّاخبِ، أيقنتُ أنّه لا معنى لأيّ شيءٍ نعيشهُ سوى الوهم، وأنّنا زائلون ولن يتبقى منّا شيءٌ.

فنحنُ منذُ دقائقِ ولادتنا الأولى نصارعُ الموتَ بهشاشةِ عظامنا؛ نقتحمُ الآلامَ ونتعايشُ معها، نتناسى الأحلامَ لنشفى، نضحكُ بعيونٍ حزينةٍ، ونبكي بدموعٍ خانقة.

نسترجعُ ذكرياتِ طفولتنا التي لم نعشها تارةً، ونتذكّرُ كهولتنا التي عشنا فيها ألفَ دهرٍ تارةً أخرى؛ نموتُ ونصخبُ ونسبّبُ الآلامَ للآخرينَ، نكسرُ قلوبهم وما نحنُ سوى عبءٍ عليهم.

لحظةُ ولادةِ أحدهم هي موتٌ لآخر، ولحظةُ سعادةِ امرئٍ هي لحظةُ تعاسةٍ لغيره؛ وهكذا تمضي الحياةُ ولا نعلمُ إلى أيّ مرسى تأخذنا، وعلى أيّةِ أمواجٍ نركنُ.. فحياتنا ليست سوى صرخاتٍ وأوجاعٍ نقتبسها من صحراءَ مزدحمةٍ بالرّمالِ الدّاكنة.

"لا أعلمُ لماذا أنتَ؟"

حرّفتُ مقاييسَ الوجودِ لأضيفكَ حرفاً إلى أحرفِ أبجديّةٍ عمياءَ، بُنيتْ على معاناةٍ مختلفة؛ فوضعتكَ في مخيّلتي ما بينَ الورودِ المزهرةِ والأوراقِ المتساقطة، وما بينَ الأمطارِ الغزيرةِ والشّمسِ اللّهيبة، فكنتَ فصلاً خامساً مزهراً.. على عكسِ حياتي بدونكَ.

اخترتُ لكَ يومي المفضّل؛ ذلك الذي قلتُ فيه اسمي لكَ لأولِ مرّةٍ، ولكنّكَ كنتَ يوماً لا شبيهَ لهُ في أيامنا سوى بدُجَاهُ. خيّرتكَ بشهرٍ لكلِّ فصلٍ، فكنتَ شهراً مغايراً تماماً لا مثيلَ له في فصولنا، واخترعتُ لكَ ثانيةً إضافيةً لتكونَ دقيقتي بك أجمل.

كنتَ هواءً يلامسُ روحي منذُ ولادتي وحتّى موتي، كنتَ عطري الشَّذِيَّ برائحةِ الياسمينِ الدّمشقي، كنتَ صلاتي السّابعةَ بعدَ صلاةِ الشروقِ، وكنتَ حرفي الخاتمَ الذي أنهي بهِ قصائدي.. حتّى صحوتُ من غفوتي وعلمتُ أنَّ الوهمَ قد تسلّقَ جدران عقلي!

فأنتَ فؤادي الذي توقّفتْ نبضاتهُ حينَ رحيلكَ، وأنتَ جرحي بنزيفهِ قاتمِ اللّونِ، ليلي الذي سكنتهُ منذُ وداعكَ الأخير، عزلتي حينَ تركني الجميعُ.. وأنتَ النّارُ التي تلتهمني بكلِّ هدوءٍ، وأنا ما زلتُ أنتظرُ حتّى يذوبَ قلبي ويختفي جسدي.

"التقاءُ الأنفاس"

كانَ صباحاً شيّقاً، فبعدَ اتفاقاتٍ عديدةٍ فشلتْ، استطعتُ أخيراً أن ألتقي بهِ. كانَ خوفي طاغياً على شوقي، ورجفةٌ تلتصقُ بجسدي، بل.. بروحي.

حينَ جلستُ، كانت نظراتي ضائعةً تتراوحُ بينَ الحنينِ والحبِّ، وكانت عيناي لا تفارقان عينيهِ، حتّى استقرّت يدي بينَ يديهِ. كنتُ أريدُ أن أغمرَهُ، لكنّي ما استطعتُ، فتمتمتُ بأشياءَ غريبةٍ عجزتُ معها عن المقاومةِ. أردتُ ارتشافَ قبلةٍ، لكن لوهلةٍ عادَ خوفي ليقيدني.

لم أنسَ حينَ اقتربتْ أنفاسهُ من أنفاسي، كانَ شعوراً يحملُ من الشّوقِ مقدارَ قرنٍ، وكم كنتُ أريدُ أن أرحلَ معهُ!

انتهى اللّقاءُ سريعاً، لكنّهُ كانَ البدايةَ لهُيامٍ لن ينتهي.

"إليكَ كلماتي"

إنّها الثّانية عشرة بعدَ منتصفِ اللّيل، وللأرقِ النّصيبُ الأكبرُ في هذهِ اللّيلةِ الباردة. كنّا نتحدّثُ فسألتني: "هل أتيتُ اليومَ على بالك؟" فبأيّ لغةٍ جرداءَ أجيبكَ؟ أأستعينُ ربّما بكتابٍ كتبتهُ لعينيك؟ أم أعيدُ ترتيبَ حروفي لأكوّنَ منها نبيذاً ترتشفهُ بشفتيكَ المرتجفتين؟ أم أخبركَ بأنّكَ قمرٌ منيرٌ، وما لفؤادي إلّا أن يرتوي من نظرةِ عينيكَ التي كالقمرِ في عنقِ السّماء؟

جمالكَ الصّاخبُ جعلَ الحروفَ تتبعثرُ وتزدادُ تعقيداً، فكلّما نظرتُ إلى ملامحِ وجهكَ، تتدفقُ كلماتُ الغزلِ لأقصّها عليكَ بكاملِ قوّتي، كي أتحوّلَ إليكَ وجهاً لوجه. أنتَ نوري في غيهبي المظلمِ، تأخذني إلى حيثُ لا أدري لأشعرَ بنشوةٍ مصدرها أنتَ، فأنتَ البحرُ وأنا المبحرُ والغريقُ.

كلّما نظرتَ إليّ أربكتني، لأنّكَ حوّلتَ غضبي وحزني ووجعي إلى ابتسامةِ رضا أرتّلها بعينيّ.. ثمَّ تسألُني إن مررتَ على بالي؟ لا، لم تمرَّ، لأنّكَ لم تغادرهُ أصلاً، لقد كنتَ في تفكيري كلَّ ثانيةٍ، ولا تزالُ نابضاً في بالي حتّى آخرِ دقةٍ من دقاتِ قلبي.

"ما بعدَ الحدود"

في زوايا اللّيل، حينَ تهدأُ السّماءُ، وتنامُ البيوتُ، وترتخي السّتائرُ وتنطفئُ الأضواء، أجلسُ وحدي بينَ العزلةِ والألمِ، والحنينِ والشّوقِ. أبدأُ بمحادثةِ قريني: مَن نحنُ يا تُرى؟ وماذا نفعلُ في دنيا كهذهِ؟ ولماذا خُلقنا إذا كنّا معذبين؟

ومن بينَ التّساؤلاتِ، يخرجُ عقلي عن السّيطرةِ مسبباً انفعالاً لم أعهدهُ من قبل، حتّى قريني عجزَ عن تهدئتي. لاحت لي فكرةٌ عابرة بالهروب من هذا العالم، لوهلةٍ كدتُ أفعلها، لكنّي تخيّلتُ الثّمن؛ ربّما أبقى على قيدِ الحياةِ بجسدٍ ميتٍ سريرياً، هناكَ حيثُ الألمُ الصّامتُ، في عالمٍ دنيويٍّ أسود، لستُ بكماء لكنّي لا أتحدّث.

وبعدَ انقطاعِ التّخيلاتِ، رأيتُ قريني ينظرُ إليّ ليرى ما سأفعلهُ، حاولتُ التخلّص من وعيي بطريقةٍ مختلفة؛ تخيّلتُ أنّي أنزعُ فؤادي من صدري وأرميه، وأطلبُ من قريني أن يفصل تفكيري عن جسدي، فأمسكتُ بزمام عقلي وبحقدٍ طاغٍ رميتهُ بعيداً ليحلّ الألمُ السّاكن.

استيقظتُ على صوتِ أنيني، وعلمتُ أنَّ الألمَ ما زال رفيقي.. فلا باركَ اللهُ بالشّقاءِ والتّفكير، ولا أذاقَ اللهُ أحداً مرارةِ العيشِ بعذاب.

"عندما أختلي بكَ"

عندما أريدُ الكتابةَ عنكَ، أختلي بنفسي ومشاعري، أحتسي القهوة لأستلهمَ منها كلماتي، وأُحضر دفتري الخاصَّ بكَ، أفتحه وشَفَتايَ ترسمانِ ابتسامةً من وحيّ الحبّ. أتصفحهُ وأنا أنتظرُ مخيلتي لأبدأ، وأمسكُ قلمي الذي أهديتني إيّاه حينما أخبرتكَ باسمي للمرةِ الأولى. إلى الآن لم أكتبْ بعد، وها هي أبجديّتي تنزلقُ من رأسي لأخطَّ عنكَ ما لا أراهُ أنا فقط، بل ما يحسُّه قلبي. لماذا حصرتكَ في مدايَ؟ لأنّي أراكَ بروحي لا بعيوني. من أنتَ لتسحرني؟ أأنتَ قمرٌ هاربٌ من العشاق؟ أم أنّكَ نجمٌ انزلقَ من السّماءِ، فكانَ حظّهُ أن يقعَ في فؤادي؟

عيناكَ قهوةٌ لا أحدَ يحبُّ أن يستيقظَ دونَ النّظرِ إليهما، وشَفَتاكَ خمرٌ تُسكرُ، وجنتاكَ القرمزيتان تعيدانِ للأعمى بصرهُ، ولمسةُ يديكَ توقظُ من غابَ في غيبوبةٍ. كالبحرِ أنتَ؛ تسحرُ الأنظارَ، ويغرقُ بكَ الجميعُ حتّى مَن يجيدُ السّباحةَ. عندما تدخلُ دارَ الأيتامِ، تعيدُ للأطفالِ ابتسامتهم، فينظرون إليكَ بحنينٍ أبويٍّ.. ما أجملكَ أيّها السّاحر!

أخذتني منّي إليك، ولا أدري كيفَ أعودُ، ولمَ أعودُ وموطني بينَ ذراعيكَ؟ حيثُ أستمعُ لمعزوفةٍ موسيقيّةٍ مدهشةٍ.. ألا وهي نبضاتُ فؤادكَ.

"فنُّ الوداع"

كانَ للقدرِ النّصيبُ الأكبرُ في قصّتنا حينَ أرادَ لنا أن نفترقَ، فكانت لحظاتٍ تعجزُ عن الوصفِ، تموجُ ما بينَ حزنٍ ووداعٍ. غصّةُ الرّحيلِ آلمتني، كأمٍّ تلدُ لأوّلِ مرّةٍ، فبقيَ الطّفلُ عالقاً في رحمها؛ خوفاً من الدّنيا.

كانت أمنيتي الوحيدةُ أن أحادثَ القدرَ، لأخبرهُ: لماذا فعلَ بنا هذا؟ ولماذا أرادَ لروحينِ أن تفترقا؟ منذُ رحيلكَ توقّفتْ عقاربُ السّاعةِ، حتّى السّماءُ بكتْ في ذلكَ اليومِ، والشّمسُ قدّمتْ عزاءَها وراءَ الجبالِ، والأشجارُ كانت تهتزُّ من عجزِ المشهدِ.

اقتربتَ منّي، واحتضنتني للمرّةِ الأخيرةِ؛ قبّلتَ شفتيّ، فأنصتُّ لأنفاسكَ، ووضعتُ يدي على فؤادكَ، ثمَّ انهمرتْ دموعٌ سقتِ التّرابَ. ابتعدتَ عنّي حتّى لم أعدْ أرى منكَ سوى الذّكرياتِ، ورائحةِ العطرِ العالقةِ بين أضلعي.

وقعتُ أرضاً، فتحطّمتْ أحلامي، وتقلّصَ فؤادي، وماتتْ حروفي. ومنذُ ذلكَ الوقتِ وأنا لا أعلمُ من أنا، سوى أنّني أنثى لا تعرفُ إلّا النّهرَ الذي يجري على وجنتيها كلَّ يومٍ. لم يكن ذلك رحيلاً فحسب، بل كانَ موتاً أُجّلَ دفنهُ إلى أجلٍ مجهولٍ.

"عذابٌ مع الهيام"

ما أقسى الحبَّ! فيهِ يعيشُ المرءُ ألفَ شعورٍ، ووجعهُ كالحريقِ حينَ يأكلُ الجسدَ. ما أقساهُ حينَ تعشقُ من ليسَ لكَ، شخصٌ من أجملِ ما يكونُ، لكنّهُ في زمنٍ لا يلائمُ الحبَّ بينكما. تنظرُ إليهِ بنظراتٍ كليلةٍ، لا تستطيعُ أن تلمسهُ، بينما في الوقتِ ذاتهِ، هناكَ من يلمسهُ بحريّةٍ، وهناكَ يربّتُ على كتفهِ ويحتضنهُ بعدَ يومٍ متعبٍ.

في ذلكَ الوقتِ أكونُ في فراشي، والدّمعُ في مقلتيّ يسقي وجنتيّ، أسألُ فؤادي: هل تحبّهُ؟ يجيبُني: أنا هائمٌ بهِ، أقولُ لهُ: لكنّهُ ليسَ لكَ، فيخبرني بأنَّ حلاوةَ الحبِّ تكمنُ هنا! أتساءلُ: كيفَ وأنا أتألمُ حينَ أتذكّرُ أنّهُ يستحيلُ لقاؤنا؟ فيجيبني: لكنّكِ يجبُ ألّا تحزني. ولمَ؟ لأنَّ هذا هو الحبُّ الصّادقُ، أن تعشقي من ليسَ لكِ، فيبقى في حلمكِ، محصوراً في ذهنكِ، دون أن تكون لديكِ القدرةُ على إظهارِ ذلكَ الحبِّ المتسرّبِ من فؤادٍ انكسرَ كالزّجاجِ.

وما النّهايةُ؟ دموعٌ لا تغيبُ حينَ ذكرهِ، وحلمٌ يرافقُ نومكِ. فقلتُ: هل هذا الألمُ سيبقى رفيقَ الدّربِ؟ ليجيبني ببرودةٍ قاتلةٍ: ذلكَ الوجعُ لا يزولُ. فأكملُ بكائي وأتمتمُ بلسانٍ يعجزُ عن النّطقِ: ما أقسى الحبَّ!

"ذكرى لا تُنسى"

لم يكن لقاؤنا صدفةً، بل كانَ حنيناً منّي أن ألتقي بغيره، قراراً اتّخذتهُ بفؤادي، فأنا متيّمةٌ عاشقةٌ ولا أسفَ على هائمةٍ. حينَ ركنتُ بجانبهِ تناسيتُ كلَّ أوجاعي، لم أبح لهُ بحبّي بأبجديّة، بل بذراعي التي التفّتْ حولَ عنقهِ، فبدوتُ بجانبهِ وكأنّي طفلةٌ محاطةٌ بحنانِ أبيها.

الحنينُ في عينيهِ جعلني أغرقُ بكلِّ تفاصيلهِ، ولم يكن موعدنا طويلاً، لكنَّ كلَّ ثانيةٍ منهُ أعادتْ إليّ الحياةَ، كوردةٍ سُقيتْ بعدما ذبلتْ. حينَ التصقَ كِيانُهُ بجسدي المرتعشِ، ولأوّلِ مرّةٍ لم أرتبكْ، بل أغمضتُ جفوني وأبحرتُ مع لمساتٍ لم أعتدْ عليها، لكنَّها أعادتِ النبضَ إلى قلبي الملتاعِ، وغمرتني بحبٍّ لم ألقَهُ قط.

كانت في مقلتيهِ براءةٌ جعلتني أغمرهُ بكاملِ شوقي، فابتسمتُ تارةً وأنا أستمعُ إلى معزوفةٍ موسيقيّةٍ جذابةٍ بعنوان "نبضاتُ فؤادهِ"، وتألمتُ تارةً أخرى لأنَّ هذا موعدنا الأخيرُ.

وحينَ ابتعدتُ عنهُ، شعرتُ وكأنّي سمكةٌ خرجتْ من الماءِ. وإلى هذهِ اللّحظةِ، ما زلتُ أسترجعُ تفاصيلَ المشهدِ، ليصبحَ ذكرى تستوطنُ فؤادي وعقلي، كلّما مرّت بخيالي كانت كنسمةٍ باردةٍ في صحراءَ قاحلةٍ.

"اللّاشيء"

بحثتُ في حلمي وفي يقظتي عن اللّاشيء، وبقيتُ أشهراً ولياليَ لم أغفُ وأنا أبحثُ عن شيءٍ يفسّرُ لنا كُنْهَهُ.

وفي نهايةِ الألمِ والتّفكيرِ، أيقنتُ أنَّ اللّاشيءَ وهمٌ كمرضٍ نفسيٍّ يتسلّلُ إلى روحنا ويسلبها، يفتّتُ عقلنا ونحنُ نبحثُ عن فكرةٍ لطالما أثارتْ فضولنا؛ وما ذاك إلّا لنعيشَ في سلامٍ. هو ألمٌ روحيٌّ يأخذنا من حياتنا، ويرمينا جسداً يصارعُ عقلهُ وفؤادهُ ليدركَ سبباً واحداً من أسبابهِ. وفي ختامِ المطافِ، وبعدما عُدتُّ أسترجعُ فتاتَ عقلي وعاطفتي، تيقّنتُ أنَّ اللّاشيءَ وهمٌ أدركناهُ ولحوفنا منهُ أخفيناهُ، فبقيَ اللاشيءُ يشبهُ الشّيءَ؛ كوهمٍ تسلّلَ إلى جدرانِ عقولنا ليفرضَ فكرتهُ، ويبقى اللّاشيءُ اسماً لا يعرفُ لاشيئيّتهُ.

"ليلة قمراء"

في إحدى ليالي سبتمبر الهادئة، كانتِ الليلةُ قمراء، والسّوادُ يغمرُ السّماء، ولم يكنْ يظهرُ سوى نجمٍ واحدٍ. خرجتُ أترجّلُ مع زحامِ أفكاري، الصّداعُ يلتهمُ جمجمتي، روحي تتمزّقُ ألماً، وفؤادي يعتصرُ حزناً، حتّى شعرتُ بالدّجى يبتلعُ مخيّلتي.

توقّفتُ برهةً، رأيتُ طيفهُ، أسرعتُ لاحتضانهِ لكنّي لم أستطعْ. نظرتُ إليهِ، وبنظرةٍ صامتة سألتهُ: لماذا رحلتَ عنّي؟ أمسكتُ بكفّيهِ، فانهارتِ الدّموعُ ألماً وحرماناً.

جلستُ على الرّصيفِ أراقبُ الطّريقَ الخالي، بعد أن انقطعَ المطرُ الذي أسقى وجنتيّ، ثم قمتُ بخطى متأنيّةٍ، وعدتُ إلى سريري. استرجعتُ الذّكرياتِ التي حاولتُ تناسيها، لأراها تنهشُني، لم أشعرْ بنفسي سوى وأنا أُحضرُ صورتهُ، أخذتها بينَ ذراعيّ، وأغمضتُ جفوني وما تزالُ العبراتُ تسيلُ على خدّيّ، حتّى غفوتُ وفي فؤادي شوقٌ لا يُحتملُ، فمتى اللّقاءُ يجمعُ جسدينِ في روحٍ واحدةٍ؟

"تخديرٌ موضعيّ"

في منتصفِ اللّيل، حينَ تسرحُ أفكاري إلى واقعٍ مدمّرٍ آلمني، تعودُ بي الذّكريات إلى يوم فراقنا؛ ذاك اليوم الذي بُترت فيهِ أحلامي وذبلَ فيهِ وجهي. تتراءى بذهني كلماتكَ، أذكرُ حينها أنني أحسستُ بوخزةٍ في روحي، وباستئصالٍ في دماغي؛ كأنّني في عمليّةٍ جراحيّةٍ يزرعون بها فؤادي لكنَّ التّخديرَ موضعيٌّ.

كانَ الألمُ يجتاحُ جسدي، تمنيّتُ الموتَ وقتها، لكن حتّى هو تخلّى عنّي. ما زلتُ أغرقُ بذكرياتي، وإذا بيدٍ تربّتُ على كتفي، كانَ طيفهُ يقولُ لي: ألم تنسي بَعد؟ لأصفعهُ على وجههِ بغضبٍ كانَ مكبوتاً منذُ رحيلهِ.. حينها استيقظتُ من غفوةٍ طالَ أنينها، وعلمتُ أنَّ النّومَ أيضاً لن يُنقذني من واقعي المؤلم.

"فلربّما نلتقي"

فلربّما نلتقي غداً، أو بعدَ غد، أو بعدَ بضعةِ أشهرٍ، أو ربما بعدَ أعوامٍ مديدة. ربّما يجمعنا رصيفُ شارعٍ عابر، أو عتمةُ سينما، أو ترانيمُ أمسيةٍ شعريّة، أو ذاك القطارُ الذي كم تمنّينا ارتحالنا فيه؛ ليأخذنا إلى ما وراءِ المحطّةِ الأخيرةِ.. حيثُ اللّانهاية.

ربّما نلتقي في غمرةِ الخريفِ العتيق؛ طالما كانَ هو المرآةَ التي تعكسُ غموضنا، أو لعلّنا نلتقي في خريفِ عمرنا، حينَ تحلّ الشيخوخةُ ويكونَ النّسيانُ رفيقنا؛ لكنَّ من استوطنَ الفؤادَ لا يُنسى، فنتذكّرُ ونستحضرُ الذّكرياتِ التي دُفنتْ في غياهبِ القلب.

لا أدركُ متى الموعدُ، لكنّنا حتّماً سنلتقي.. سنلتقي في ملاذنا المعتاد، نطالعُ الصّحفَ، نرتشفُ القهوةَ، ونغزلُ حروفاً من أبجديّةِ اللّازوردِ. سنقطفُ الياسمينَ، وأكتبُ عنكَ لأُولَدَ من جديدٍ، وأبحرَ في عينيكَ دونَ شاطئٍ يقين.. حتّماً سنلتقي.

"سَأَنتَظِرُكِ"

كانَ مَقاماً أشبهَ بالخيالِ، مفعماً بفوضى الحواسِ؛ ما بينَ الثَّانيةِ والأخرى ذكرى ممتلئةٌ بالشَّغفِ، ونجوى منَ الوجدِ، وشعورٌ منَ الغموضِ، وحيرةٌ رافقتنا ونحنُ ننشدُ اللَّاشيءَ. كانَ مَكاناً يُشبهُنا؛ أستحضرُ فيهِ تفاصيلَكَ الَّتي لطالما كانتْ مَعينَ إلهامي، لكنَّكَ الآنَ لَمْ تَعُدْ، ولستَ معي ومعَ حيرتي المَكْنُونَةِ.

أمَّا أنا، فما برحتُ أمكثُ في المَقامِ عينِهِ ونارُ الشَّوقِ تلتهمني؛ أسترجعُ بسمتَكَ وصوتَكَ وحديثَكَ، وأستدعي ذكرياتِنا الَّتي كَمْ حاولتُ تناسيها فخُذِلْتُ، إذْ تعودُ إليَّ وكأنَّها المرَّةُ الأولى الَّتي أرمقُكَ فيها.

تنهمرُ عبراتي، وأرسمُكَ في مُخَيِّلَتي وعلى جُدُرِ هذا المَكانِ؛ أُسَامِرُ طيفَكَ الَّذي لطالما سكنَ الفؤادَ، وأبثُّ ترانيمَ صوتي معَ اللَّازوَرْدِ المُقَدَّسِ. أجمعُ كلماتي وأخطُّ لكَ رسالتي بالقلمِ الَّذي أهديتني إيَّاهُ في عيدِ شقائي الأوَّلِ؛ أبعثُها إليكَ عبْرَ عبيرِ الحياةِ، بيدَ أنَّني لا أعلمُ إنْ كانتْ قدْ وَصَلَتْ أمْ أنَّها تبعثرتْ منها اللُّغَةُ خلالَ رحلةِ العُمْرِ.. أنا لا أعلمُ، لكنَّني ما زلتُ أرقبُ عودتَكَ.

وسأنتظرُكَ حتَّى آخرِ نبضاتِ فؤادي المُلْتَاعِ، لعلَّكَ تؤوبُ ونجلسُ في مَكاننا المُعتادِ؛ ننثرُ أبجديَّتَنا على سطورٍ صَمَّاءَ، ونُبحرُ في لُجَّةِ الأوهامِ، ونرسمُ تفاصيلَ عُمْرِنا على الورقِ المتساقطِ في الخريفِ العتيقِ.. فحتماً سأنتظرُكَ.

"لَحْظَةٌ خِيَالِيَّةٌ"

لا أصعبَ منْ لحظةٍ خياليَّةٍ عندما ترقدُ على مضجعِكَ لتُسَامِرَ قرينَكَ، حيثُ يسوقُكَ إلى تدبُّرِ أفكارٍ وأوهامٍ أشدَّ خطراً منَ الواقعِ الزَّائفِ.

يحادثُكَ بأشياءَ لمْ تَقَعْ، وإنْ وَقَعَتْ فَتَبْدُو بصورةٍ هلاميَّةٍ، يغتالُ طفولتَكَ ورَجَاحَتَكَ، ويحوِّلُكَ إلى شخصٍ لوْ عشتَ ألفَ دهرٍ ونيِّفٍ لمْ تتعرَّفْ عليهِ.

تصبحُ رؤاكَ معدومةً ومحاطةً بظلالٍ تبعيَّةٍ، وعندما يوجِهُكَ قرينُكَ فما أنتَ بقادرٍ على صنيعِ شيءٍ سوى ما أَمَرَ.

تتحدَّثُ معَ شخوصٍ ليسَ لهمْ وجودٌ سوى الشَّيطانِ العاشقِ، وما هذا إلَّا وهمٌ استحالَ حقيقةً بأفعالِ المُنَجِّمينَ.

"إيَّاكَ وَالِارْتِجَالَ"

لستَ كَسَائِرِ الصِّبيةِ أنتَ بمفردِكَ، وأنا لستُ كباقي الفتياتِ أنا بمفردي. لستُ ممَّنْ ينبذُ الوردةَ ليقتنِيَها منَ الأبهى، فأنا لا أبتغي الجمالَ بلْ أنشدُ الاهتمامَ.

عندما اتَّكأتُ على جذعِ الشَّجرِ ارتقيتَ سَامِقاً حتَّى جذبتني دونَ التفاتٍ منْكَ، لكنَّكَ أوجلتني حينَ خاطبتني للمرَّةِ الأولى بَعْدَمَا كسرتَ طوقَ الخجلِ؛ كنتَ متوجِّساً نوعاً ما، بيدَ أنَّني أنا مَنْ فقدتُ نبضاتي كرَّةً بعدَ أخرى. وعندما افترَّ ثغري عنِ ابتسامةٍ خفيفةٍ خِلْتَها سخريةً، وما هيَ إلَّا مَنْحًى آخرُ للرَّدِّ.

هجرتَ مَقامَنا وانحرفتَ عنْ مقعدِنا الجامعيِّ لتُسَامِرَني بحديثٍ عنْ مَشَاهدَ حَسِبْتَ أنَّكَ كُنْتَ تَرْمُقُها وحدَكَ، وفي الحقيقةِ كنتُ أرقبُها في اللَّحظةِ عينِها، واصطنعتُ حواراً بيني وبينَكَ يُلائمُ ما فاتَني وفاتَكَ. قلتُ لكَ إنَّ الوِصَالَ الباكرَ خطيئةٌ، أتدري لِمَ؟ لأنَّني استشعرتُ غصَّةً في قلبي تجاهَكَ. وعندما أوعزتُ إليكَ أنَّ الَّذينَ يتوسَّدونَ الشَّجرَ حمقى، كانَ مأربي استفزازَكَ لأرى مَاذَا تَنْطِقُ، لكنَّكَ كُنْتَ أدْهَى منِّي وأجبتني بأنَّكَ لَذُو علْمٍ، وتبسَّمتَ ابتسامةً تظنُّها في ناظريْكَ عدميَّةً، بيدَ أنَّها أهلكتني.. فإيَّاكَ والارتجالَ أمامي مرَّةً أخرى!

"لَيْتَنِي لَمْ أَلْقَاكَ"

عندما كانَ الكللُ يحتويني، خرجتُ لأترجَّلَ في زحامِ الأمكنةِ، بيدَ أنَّني لَمْ أجدْ في المَقامِ أحداً. ترجَّلتُ ولكنَّ ثَمَّةَ أمراً أشغلَ عقلي وتفكيري، حينَ رمقتُ شاباً يبدو أنَّهُ لَمْ يكنْ على ما يُرامِ؛ كانتْ نظراتُهُ مُرْوِعَةً، وكانَ يثبجُ بالحديثِ معَ نفسِهِ وكأنَّهُ يرومُ الانتقامَ منْ ذاتِهِ السَّوداويَّةِ. ورغمَ وجلي الشَّديدِ إلَّا أنَّني دنوتُ منهُ، فدافعَ الابتعادَ، فابتسمتُ ابتسامةً خفيفةً، هنا شعرَ بالاطمئنانِ فعادَ إلى مَكانِهِ. جلستُ بجوارِهِ وقلتُ لهُ: ما خطبُكَ؟ قالَ لي: كنتُ أتحدَّثُ معهُ! فتعجَّبتُ وقلتُ: معَ مَنْ، ولا يوجدُ سوانا في هذا الحِمَى؟

برهةُ صمتٍ كسرَها بدموعِهِ الَّتي أحرقتْ وجنتيهِ، قلتُ لهُ: بماذا تشعرُ؟ قالَ: كانَ يدعوني لأنْ أُنهيَ حياتي ولكنَّني لا أريدُ، حينها أيقنتُ أنَّ عقلَهُ مُغَيَّبٌ. قلتُ لهُ: ما الَّذي ساقَكَ إلى هذا المآلِ؟

بدأَ يروي قصَّتَهُ، لَمْ أستحضرْ منها سوى الخيبةِ الَّتي عاصَرَها منذُ نعومةِ أظفارِهِ، والخوفِ الَّذي كانَ ملاذَهُ، والأسى الَّذي لَمْ يمضِ يومٌ إلَّا وهوَ رفيقُهُ فيهِ. لَمْ أجدْ ما أقولُهُ إلَّا أنَّني بكيتُ لحالِهِ، ثمَّ برحتُ المَكانَ رغماً عنِّي؛ وعدتُ إلى مضجعي والدُّموعُ تنهمرُ على وجنتيَّ، وقلتُ في نفسي: ليتني لَمْ ألقاكَ.

"بَقَاءٌ بِانْكِسَارٍ"

خُيِّرتُ بينَ رحيلٍ أليمٍ وبقاءٍ مميتٍ، فماذا عسايَ أختارُ؟ سأقفُ عاجزةً إزاءَ خيارٍ كهذا، فكلاهُما موجعٌ ويمضي بنا نحو غياهبَ كئيبةٍ لا نتَّسعُ لخيبتِنا.

هلْ نمكثُ كأشلاءٍ غارقةٍ في لُجَّةِ الأوهامِ، أمْ ننأى بغصَّتِنا وتبقى ذاكرتُنا معلَّقةً في ذلكَ الحيِّزِ؟ لا فرقَ بينَهُما، فالأسى والكللُ سيحتويانِ كلا المسارينِ.

لكنَّني أمعنتُ النَّظرَ قليلاً، فأيقنتُ اختيارَ البقاءِ، فأنا لا أطيقُ الوداعَ حتَّى لوِ انخذلتُ للمرَّةِ الأولى بعدَ المئةِ. سأبقى أرمقُ بعيونٍ كسيفةٍ ذلكَ المَقامَ، وسيبقى فؤادي يحتملُ عاتياتِ التَّعبِ، فقدِ اعتدتُ الشَّقاءَ، فأنا المخذولةُ البريئةُ أينما حللتُ، لكنَّ قلبي يَعْجَزُ عنِ المغادرةِ.

لذلكَ، سأبقى كجثَّةٍ هامدةٍ أرقبُ حتفي برصاصةٍ عابرةٍ، أوْ أنتظرُ غرقي في خِضَمِّ الخذلانِ، وسأنتهي بموتٍ أبديٍّ يطوي عتمتي الجارحةَ.

"الفُؤَادُ المُكَبَّلُ"

أُزجي أسفي واعتذاري لفؤادٍ أهلكتُهُ وحكمتُ عليهِ بالوَجْدِ؛ هذا الفؤادُ المُنْهَتِكُ الَّذي ولجَ في صراعاتٍ روحيَّةٍ وفي مآزِقَ أفقدتْهُ شغفَ العيشِ. أعلمُ أنَّ اعتذاري قدْ أتى متأخِّراً بعدما فقدَ القلبُ رقَّتَهُ ورونقَهُ، واستسلمَ لحالةِ هذيانٍ قادتْهُ نحو اللَّاوعي.

ومهما ملكتُ منْ تبريراتٍ واهيةٍ، لنْ أتناسى ما أورثتُ فؤادي منْ ندباتٍ وآهاتٍ، وما فرضتُ عليهِ في قفصٍ منْ سوادٍ لا أحدَ يعلمُ ما يدورُ في غياهِبِهِ. ولكنْ ليسَ باليدِ حيلةٌ؛ فما حدثَ قدْ حدثَ، ولا أحدَ يستطيعُ إحياءَ ذلكَ الفؤادِ المَكْلُومِ المُقَيَّدِ. فأنا سأبقى هكذا، أرقبُ منيتي حتَّى تعلوَ هتافاتُ التَّشييعِ، وتكونَ نُعوتي هيَ اعتذاري الأخيرُ.

"صِرَاعَاتٌ"

ما بينَ اللُّبِّ والفؤادِ هناكَ سردابٌ منَ الأوهامِ، وهتافاتٌ تتراءى لنا في حينِ يحدثُ صراعٌ ما بينَ قلبٍ وعقلٍ.
نجلسُ حيارى ونذرفُ دموعاً ونتساءلُ: لماذا يريدُ العقلُ إتلافَ الفؤادِ؟ ولماذا هذهِ الأوهامُ تحدثُ ما بينَ هذا وذاكَ؟
وعندما لا نجدُ حلّاً ويتآكلُ شغفُنا في الحياةِ، هنا نريدُ الانتقامَ، فنُتعبُ عقلَنا ونجرحُ فؤادَنا، ويبقى صراعُنا مستمراً حتَّى يتنازلَ أحدهُما عنِ الآخرِ، وهنا حتماً ستنتهي الفروقاتُ بينَهُما وينغلقُ السَّردابُ على أوهامِنا، لنعيشَ بقلبٍ دونَ عقلٍ، أوْ بعقلٍ دونَ قلبٍ.

"مُنَاجَاةٌ"

حينَ تشعرُ بثِقْلٍ في عمقِ روحِكَ، حينَ تشعرُ باضطرابٍ في العقلِ ومناجاةٍ في الفؤادِ، حينَ تعتزلُ عالماً بأكملِه، حينَ تذرفُ دموعَكَ على أبسطِ الأشياءِ، هنا حتماً تكونُ قدْ تلقَّيتَ صفعةَ خذلانٍ أدَّتْ بِكَ نحو اللَّاوعي.

الخذلانُ كمقبرةٍ، مَنْ يدخلْها فعليهِ المكوثُ طويلاً إلى حينِ تأتي القيامةُ، وفي فترةِ المكوثِ يهربُ المرءُ منْ نفسِهِ إلى شخصٍ مجهولٍ، يتناسى ذاكرتَهُ لكنَّهُ لا يستطيعُ، ويصبحُ عالمُهُ مليئاً بالسَّوادِ. يتمنَّى الموتَ لكنَّهُ لا يجيدُهُ، ويغرقُ في بحرِ الآهاتِ والعَبَراتِ.

يتمدَّدُ الخذلانُ في خلايا العقلِ، ويقتحمُ القلبَ المعلَّقَ ما بينَ الوعي واللَّاوعي، وهنا لمْ تعدْ تنتظرُ أكثرَ، فأنتَ أصبحتَ جزءاً منَ الظَّلامِ، أصبحتَ كالهيروينِ لا تشعرُ سوى بخيبتِكَ. فتقرِّرُ الانتقامَ، لكنْ منْ نفسِكَ أنتَ، فتناجي الموتَ بأنْ لا يطولَ غيابُهُ، وتجلسُ تنتظرُهُ وفي قلبِكَ غصَّةُ الخذلانِ.

"أَشْبَهَ بِالْخِيَالِ"

كانتِ الصَّبابةُ إلى أشياءَ غامضةٍ تُرهقُني وترميني بمكانٍ أشبهَ بالخيالِ فوقَ الرِّمالِ المبعثرةِ، تذكِّرُني بطفولتي الَّتي لطالما أحببتُها رغمَ أنِّي لَمْ أرَ منها سوى بضعِ دقائقَ.

ثمَّ انطلقتُ بذاكرتي إلى لحظةٍ عاتمةٍ حينَ تذكَّرتُ كهولتي الَّتي لطالما عشتُ بها ألفَ دهرٍ، وذرفتُ دموعي حينَ تذكَّرتُ أنِّي لَمْ أتحوَّلْ ولا بضعَ ثوانٍ إلى شبابي.

رغمَ صِغَرِ سنِّي إلَّا أنِّي عشتُ حزنَ فلسطينَ، وذبلتُ كزهرةِ الياسمينِ في خريفٍ غامضٍ، ارتشفتُ منْ كأسِ الحياةِ في لحظةٍ خاليةٍ منَ الوقتِ، لا يوجدُ بها سوى ذاكرتي وهيَ تصارعُ الموتَ البطيءَ.

"رَأَيْتُكَ طَيْفاً"

رأيتُكَ طيفاً مرَّ على ذاكرتي فأسرعَ بهشاشتها، تنظرُ إليَّ بحنينٍ متلهّفٍ، تنقذُني منَ الغرقِ في بحرِ عينيكَ، وتضمّني بكلماتِكَ السَّاحرةِ الَّتي لطالما خرجتْ منْ شفتيكَ كبَحَّةٍ أيقظتني منْ غفوتي. أنتَ تجمعُني معَ كلماتي لأرتّبَها في جملةٍ أنتَ عنوانُها، يا أيُّها القلبُ الدَّافئُ، يا حلميَ المنتظَرُ.. أريدُكَ. لا يمكنُني لفظُ اسمِكَ، فأخافُ أنْ تضيعَ حروفُهُ في الهواءِ، أوْ تنقطعَ أنفاسي لترتيلِ حروفٍ سكنتْ في فؤادي فألهبتني طرباً.

مسرفةٌ بالهُيامِ، ومُعلّقةٌ بالجوى، ودائمةُ الشُّرودِ بشهلِ عينيكَ، فهلْ تحتويني في أوتارِ لحنِكَ وتُراقصُ أملي بعذبِ ما تلفظُ شفاهُكَ؟ تسألُني هلْ سأقولُ لكَ كلماتٍ أرتّلُها لكَ بعينيَّ لعلَّكَ تفهمُ لغةَ العيونِ؛ ليسَ هذا حبَّنا، فحبُّنا تجاوزَ المشاعرَ والهوى، وحبُّنا مدفونٌ بالفؤادِ لا ينتهي إلَّا بانتهاءِ رونقِ الحياةِ.

أعطِني الرَّبابةَ واجلسْ أمامي وضَعْ شهلَ عينيكَ بينَ عينيَّ علَّني أعزفُ مقطوعةً موسيقيَّةً أهديها لقلبِكَ المكسوفِ بالوجدِ؛ فأنتَ معطفي في ليلةٍ باردةٍ، وأنتَ نورٌ لعتمتي الصَّاخبةِ. فدعْنا نركنُ على أمواجٍ هادئةٍ ونسافرُ في بحرِ الأوهامِ علَّنا نتخلَّصُ منْ بُعدِ أرهقَنا، وننعمُ بعشقٍ يجمعُنا، ونُعبّدُ طريقَ الوصلِ ونُجدّدُ فينا الأملَ.

"مونودراما"

في عمقِ اللّيل، حينَ التقتِ الأحلامُ باليقظة، ارتسمَ في مخيّلتي مشهدٌ مونودراميّ؛ هذه أنا، جالسةٌ بثوبي المهترئ وفؤادي الممزّق، إزائي آلةٌ موسيقيّةٌ تنتحلُ صفةَ السّكون، ثمَّ في لحظةٍ تعزفُ ألحانَ لوعتي بكلِّ هدوء. أمّا الشّمعةُ فكأنّها تشهدُ على ذوبانِ خافقي بدلاً من انخيطِ الذي تحتضنهُ، أمواجُ البحرِ ساكنة، لكنّها ترتطمُ بمخيّلتي لتوقظني من أوهامي.

فكّرتُ في الانتحار، لكنّي جاهدتُ مبتعدةً عن فكرةِ قتلِ النَّفس، متوهمةً بأنَّ الشّقاءَ سيزول. لم أعدْ إلى ذاكَ اللّيل، بقيتُ عالقةً في المشهدِ وحدي، وما زالَ تصوُّري للمونولوج مرئياً في رأسي.

يبدو أنّني سأبقى هكذا، سينتهي المطافُ بي بأن أحقّقَ حلمي بالموت، أو أن أبقى وسطَ هدوءِ المكانِ وأنينِ نفسي، إلى أن يأتي حتفي بحفنةِ ترابٍ تضمّني، لأُكرَمَ بالدّفنِ إلى الأبد.

"صمتٌ بنكهةِ الموت"

هذهِ أنا، مقيّدةُ الشّفاهِ لا أبوحُ بشيءٍ سوى صمتي.
تركتُ صوتي عالقاً بينَ أحبالي الصّوتية، هجرتُ الكلامَ ونسيتُ الأبجديّة. هذا صوتي يبدو أنّهُ يستعدُّ للخروجِ، ثمَّ تذكّرَ أنّهُ في حبسٍ وعليهِ كسرُ القضبانِ إذا أرادَ العبور، فعادَ إلى مكانهِ حاملاً خيبتهُ معهُ، ورغمَ هذا، بقيَ هائجاً في جسدي، هادئاً خارجهُ، فمزّقني! ولم يَعلم أحدٌ سببَ وفاتي، فسجّلوا السّببَ مجهولاً، ولم يدركوا أنَّ الصّمتَ هو غريمي. تبّاً لواقعٍ لا يعلمُ شيئاً عن وجعِ الرّوح، يلتهمُنا ونحنُ لا نبوحُ بأيّ كلمةٍ سوى الصّمت.

"غَرَقْ"

ليسَ الأملُ طريقاً مفتوحاً بلْ هوَ زنزانةٌ محكمةُ الإغلاقِ، مَن يريدُ التقاطَهُ فعليهِ بالمجازفةِ لكسرِ القضبانِ والتَّمسُّكِ بهِ، لكنَّ الأملَ منّي هاربٌ، فأنا منذُ ولادتي واليأسُ ممدَّدٌ في خلايا عقلي.

لطالما كانَ الحزنُ أسيراً في فؤادي، والفشلُ رفيقاً لدربٍ مليءٍ بالسَّوادِ.

منذُ سبعةَ عشرَ عاماً لا يوماً مرَّ دونَ سماعِ صرخاتِ الفؤادِ، أشعرُ أنّي لستُ بإنسانٍ، أيعقلُ أنّي شبحٌ هربَ منْ مدينةِ الأشباحِ؟ لربَّما ذلكَ ما حدثَ، أوْ ربَّما الآلامُ هيَ مَنِ اصطفتني عنْ سوايَ لأكونَ مقبرةً لدفنِ الآهاتِ.

هذا ما دفعَني لأستأصلَ الأملَ منْ عمقِ روحي، وأغرقَ في بحرٍ لُجّيٍّ مليءٍ باللَّاأملِ.

"دُجْنَةٌ"

سوادٌ طغى على المكانِ، وعالمٌ محاطٌ بشتَّى أنواعِ الدَّمارِ؛ خيمٌ مهترئةٌ تتساقطُ على أرضٍ جرداءَ، وفضاءٌ ملطَّخٌ بسوادٍ هالكٍ. سماءٌ هائجةٌ، ورياحٌ تعصفُ بالأرجاءِ، وقمرٌ غدا على غيرِ عادتِهِ.. ممزوجاً بالدِّماءِ.

يأسٌ يقتحمُ الزَّمانَ، وعبثيَّةٌ تقتلُ الأحلامَ، وكلُّ شيءٍ يمضي نحو اللَّااكتمالِ؛ فلمْ يبقَ لنا ملجأٌ. ما حدثَ قدْ حدثَ، ولا شيءَ يعودُ إلى سالفِ عهدِهِ، ولمْ يبقَ بانتظارِنا سوى حفنةِ ترابٍ نركنُ أسفلَها.

"ذَاتَ يَوْمٍ"

لَمْ يعجبْها أنْ تكونَ فوقَ الأرضِ لأنَّها تعلمُ ما سيؤولُ إليهِ المصيرُ؛ تعلمُ أنَّ الحياةَ الخارجيَّةَ هيَ مجرَّدُ انطفاءٍ للرُّوح وبعثرةٍ للذِّهنِ، وتعلمُ أنَّها ستكونُ بنظرِ الآخرينَ محاطةً بمرضٍ نفسيٍّ.

لذلكَ، قرَّرتْ أنْ تنزويَ بمفردِها في أعمقِ بقاعِ الأرضِ حيثُ يصنعُ النُّورُ والأملُ؛ تسكنُ لوحدِها، تداوي جراحَها، تنيرُ حلمَها، وتقرأُ شغفاً رسمتْهُ على غلافِ أحدِ كتبِها عندما كانتْ تحاولُ الانعتاقَ ممَّا يُسمَّى الحياةَ.

لكنَّها لَمْ تيأسْ، فهيَ توقنُ أنَّها لنْ تُهزمَ، وسيكونُ النَّصرُ حليفَ خُطاها ذاتَ يومٍ.

"وَلَنْ أَسْتَحِقَّ"

كنتُ أتمنَّى عندَ ولادتي أنْ أكونَ مصابةً بفتحةٍ في القلبِ، لربَّما كانتْ تنغلقُ معَ الأيامِ وتُغْلِقُ معَها الآلامَ والآهاتِ، ولكنْ لمْ يحدثْ ذلكَ.

ولكنَّني آملُ الآنَ أنْ يعملَ شغافُ قلبي وغشاءُ التَّامورِ بكفاءةٍ أكبرَ، لكيْ يساعدا على تمدُّدِ فؤادي حتَّى ينفجرَ، فتنقذفَ العَبَراتُ والأوجاعُ داخلَ جسدي، ومنْ ثمَّ أموتُ؛ لأنَّني أنا، وبكلِّ ما أوتيتُ منْ هشاشةٍ، لا أستحقُّ العيشَ.. فهنيئاً لقلبي بالتَّعبِ حتَّى ينالَ الموتَ.

"همتُ بكَ"

في عمقِ أرقي، حينَ كانَ للكمدِ النّصيبُ الأكبرُ من حياتي، خرجتُ وإيّاهُ في عتمةِ اللّيلِ؛ تشابكتْ أيدينا، وضعتُ رأسي على كتفهِ، وكانَ الصّمتُ وسيلتنا في التّعبيرِ. سهمُ عينيهِ وقعَ في فؤادي، فارتسمتْ ضحكةٌ على وجهي، وأطلتُ النّظرَ إليهِ وكلّي شوقٌ لاحتضانهِ، لكنّي جاهدتُ نفسي لأكسرَ صمتنا، فسألتهُ: من أنا فيكَ؟

أشارَ بيدهِ إلى نورٍ شحيحٍ في عنقِ السّماءِ وقالَ: في دجنةِ اللّيلِ، ينيرُ القمرُ السّوادَ الجافَّ لنرى جمالَ الأشياءِ، هكذا أنتِ فيّ؛ تنيرينَ عتمتي، وترسمينَ السّعادةَ لأيامي.

بدأ وجهي يتبلّلُ إذْ ذرفتِ الدّموعُ وحدها، فمرّرَ يدهُ على مقلتيّ يمسحُ دمعي، وأخبرني بأنَّ دموعي تقتلهُ، ثمَّ اقتربَ منّي بكلِّ حنينٍ؛ قبّلَ وجنتيّ، والتفّتْ ذراعاهُ حولي، فهُزمتُ أمامَ حبّهِ، وأعلنتُ لهُ أشواقي. احتضنني بقوّتهِ لأصبحَ في عالمٍ بينَ أضلعهِ، ما زلتُ أرمي عليهِ ألَمَ سنيني وأتنهّدُ.

أمسكَ يدي، ووضعها على قلبهِ، فشعرتُ بنبضاته تخترقُ روحي، ورحلتُ بخيالي أرتشفُ الأبجديّةَ كالنَّبيذ.

عيونهُ بحرٌ وأنا المبحرُ والغريقُ، شعرهُ ناعمٌ كالحريرِ، وثغرهُ رماني في لجّةِ الصّبابةِ، أمّا احمرارُ وجنتيهِ فجعلني أردّدُ ألحانَ الهوى. على جيدهِ شامةٌ تثبتُ انتمائي لهُ، وعن صوتهِ فآهٍ.. معزوفةٌ موسيقيّةٌ هادئةٌ روتْ ظمأ قلبي، ولمسةُ يديهِ مزّقتِ العقلَ قبلَ الفؤادِ. غارقةٌ بهِ أنا، كسفينةٍ أبى اليَمُّ إلّا أن يبتلعَها، أراهُ العنقاءَ لا شيءَ سواه.

لماذا لا أستطيعُ وصفهُ؟ أيُّ قصيدةٍ ستحملُ أوصافهُ؟ أيُّ حبرٍ سيكتبُ عنهُ؟ أيُّ أضلعٍ تخفي حبّهُ؟ إنّها الأبجديّةُ تقفُ عائقاً بيني وبينهُ.

لن أكملَ، لا لأنّي مللتُ، بل لأنّي أريدُ أن أبقى معهُ ساعاتٍ ودقائقَ حتّى يمتلئَ فؤادي منهُ.

وإلى ذاكَ الزّمنِ الذي توقّفَ عندي، إلى حينِ أراكَ ثانيةً، أهديكَ عمري لأنّك أنتَ هو، وفؤادي لأنّهُ ينبضُ لأجلكَ.

أميرة عبدالله

"التّمزقُ الرّوحي وأنا"

فتّشوا جميعَ أشلائي، ثيابي، سريري، وحتّى حقائبي، لكنّهم ما استطاعوا تفتيشَ فؤادي؛ فلا أحدَ قادرٌ على أن يخرجكَ منّي. حتّى وإن قاموا بتخديري وأخذوا يمرّرونَ بمشرطٍ على قلبي، ثمَّ غرزوا أصابعهم وانتشلوه، ستبقى غارقاً فيّ؛ فأنتَ الرّوحُ التي تسكنني، لا أراها لكنّني متيقنةٌ أنّها رفيقتي في كلِّ لحظة.

أتدري يا حلمي؟ إنّني أبحثُ عن حروفٍ أخرى للتّعبيرِ عنكَ، فقد عجزتِ الأبجديّةُ أن ترمّمَ عشقي بحروفها. أكتبُ ثمَّ أكتب، فلا أرى إلّا ازدياداً في الشّوقِ يؤلمني. كلّما أحاولُ الكتابةَ عنكَ لأخفّفَ ثقلَ غيابكَ، أراني أتعثّرُ عندَ كلِّ كلمة، وأذرفُ الدّموعَ عندَ كلِّ جملة، حتّى تصبحَ الورقةُ عبارةً عن مزيجٍ بينَ اللّونينِ الأحمرِ واللّونِ الشّفاف.

ثمَّ في لحظةِ انهيارٍ، ألمحُ طيفكَ ينظرُ إليّ وكأنّه يخبرني أنَّكَ تنتظرني، فأغمضُ جفوني وأعلنُ استسلامي بينَ ذراعيكَ. أحتضنكَ بحنينٍ مرهف، كأمٍّ أنجبتْ طفلها بعدَ عُقمٍ طالَ انتظاره، أو كحبيبٍ تزوّجَ محبوبتَهُ بعدَ سنواتٍ من الصبر. أراني لا أفلتكَ، فدماغي لا يتقبلُ الابتعادَ عنكَ، وجسدي لا يريدُ الارتماءَ في مكانٍ بعيدٍ عنك.

أتراكَ تسمعني؟ تحنُّ إليّ؟ تتذكرني؟ لا أدري ماذا فعلتَ بي، فأنتَ ذلكَ النّورُ الخافتُ الذي جعلني أقبلُ العيشَ في بقعةٍ من الظّلام. أريدكَ.. أنتَ قريبٌ منّي لكنّكَ بعيدٌ عنّي إلى أقسى حدّ. خانني فؤادي، وأنا الآن أحترقُ بصمتٍ مميت، وأنتظرُ نعشاً يحتضنُ ما بقي من جرحي.. فمتى؟!

أميرة عبدالله

"لأحدهم"

لا تحزنْ يا خليلي، أعلمُ أنّكَ مكسورُ الفؤادِ وغريقُ العقلِ، وإنَّ الخيباتِ سلبتْ أملَها مِنكَ، إنّي لأرى في عيونكَ الكللَ.

أعلمُ أنَّك تعيشُ في وهمٍ اخترتهُ لنفسكَ في لحظةٍ كانَ الهلعُ فيها وليفَكَ، وأنّكَ حوّلتَ نزيفَ جروحكَ إلى سائلٍ خضيبٍ كتبتَ فيهِ كلَّ معاني الألمِ.

ألا تعلمُ بأنّكَ أسيرُ الإبداعِ؟ فأنتَ جعلتَ الكلامَ يتناثرُ بينَ السّطورِ مشكّلاً أوجاعاً خططتَها عندما كنتَ تقفُ على حافةِ الانتحارِ، لكنّكَ أكملتَ مسيركَ لتبحثَ عن نفسكَ التي فقدتها وأنتَ تتماشى مع دجنةِ اللّيلِ. لربّما علمتَ أنَّكَ بقلبِ شخصٍ ما، أو ربّما ظننتَ أنَّ كسوفكَ يُوجعُ روحهُ، فتراجعتَ عن ذلكَ الفعلِ المعقّدِ وعدتَ إلى قلمكَ لتخترعَ أبجديّةً ترسمُها بدموعكَ.

يبدو أنّكَ ألفتَ الحزنَ ولكن كيف؟ ألا تعلمُ بأنّهُ يسببُ قلباً ملتاعاً، وعقلاً مشغولاً، وفِكراً مهموماً؟

يبدو أنّكَ تحتاجُ مبيداً أقوى من الكلماتِ ليعيدَ لكَ نشوتكَ مع قليلٍ من الذّكرياتِ الجميلةِ. أعلمُ أنّكَ متعبٌ ولكن أريدُ منكَ أن تتعايشَ مع الأملِ وتتناسى محطّةَ الألمِ لتجتازَ خيباتكَ المتكرّرةَ.

هناكَ يومٌ ستعلمُ الحياةُ بوجودكَ فتعطيكَ قطرةً من سمائها تُحيي بها روحكَ وتروي بها ظمأَ فؤادكَ، هذا يومٌ سيأتي لا محالةَ، فما يحدثُ معكَ ليسَ سوى غيمةٍ كئيبةٍ أحبَّتْ أن تظلّلكَ لترى إبداعكَ وحدَها ولكنّها ستزولُ، وتعودُ أنتَ ويعودُ نبضكَ إليكَ، حينها ستفرحُ كطفلٍ تداعبهُ أمّهُ ومن شدّةِ الضّحكِ نامَ بينَ يديها حينَ شعرَ بحضنها الدّافئِ يغمرهُ. هكذا أنتَ ستعودُ وسيزولُ الكللُ، ولكن عليكَ بالمجازفةِ لاستئصالِ أوجاعكَ من عمقِ روحكَ، عندها ستغدو وكأنّكَ العنقاءُ، وإلى ذلكَ الوقتِ أقولُ لكَ: لا تحزنْ يا خليلي.

أميرة عبدالله

"اصطدام الحلم باليقظة"

في عمقِ اللّيل، حينَ تلتقي الأحلامُ باليقظة، أجلسُ في غرفتي المنعزلة عن العالم، أرى السّوادَ فيها، ما زلتُ في مكاني. يقتحمُ الواقعُ خيالي ليوقظني من أوهامي، الدّموعُ تحتلُّ مقلتيّ، ها أنا أرحلُ بطيفي لألتقي بسواكَ، تناسيتكَ لكنّي ما استطعتُ، ما زلتُ أتذكّرُ حديثكَ الأخير الذي بعدهُ فقدتُ نفسي. لم يكنْ خطئي ولم يكن خطأكَ، إنّها الحياة، لعبتِ الدّورَ الأكبرَ حتّى نجحتْ في تفريقنا.

ما زلتُ أسترجعُ صوتكَ الذي يحنُّ لهُ فؤادي، وعيونكَ التي أغرقتني بكَ، ودفءَ حضنكَ الذي لم أحظَ بهِ، وتفاصيلكَ التي أجادتْ إرهاقَ لبّي.

ليتَ الزّمانَ يتوقّفُ بنا ويعودُ، كنتُ سأختاركَ رغمَ يقيني أنَّ اللّقاءَ مستحيلٌ، ليتَ الفراقَ لقاءٌ، كنتُ حظيتُ بكَ لمرّةٍ واحدةٍ علّني أستردُّ قلبي المتعب.

ما زلتُ أنادي باسمكَ أمام الجميع، طيفكَ لا يغادرني بل يحاصرني، بحثتُ عنكَ في كلِّ مكانٍ،

لم أجدكَ سوى في داخلي لأنّكَ أسيرٌ فيه. أتعلمُ يا ساكني؟ منذُ غيابكَ تخلّيتُ عن أناي، روحي ذهبتْ معكَ أمّا الجسدُ فبقيَ ليشهدَ عذابي. لم تقلْ: "إلى اللّقاء" بل قلتَ: "الوداع"، فعلمتُ أنَّ لقاءَنا في الأحلام.

في يومٍ حتّماً سيأتي، سأذهبُ بردائي الأسود ووجهي الشّاحب، أبحثُ عن محبوبتكَ، أخبرها ماذا تفعلُ لكَ، ستتوجعُ لكنّي تألّمتُ أكثرَ منها، هي لم يكن حلمها أنتَ لكنّكَ كنتَ لها، أمّا أنا فحلمي أنتَ لكنَّ البُعدَ شبحٌ بيننا. سأخبرها وصيتي ممزوجةً بدموعي، لأعودَ إلى واقعي وافيةً بعهدي، أستمعُ إلى أنينِ الذّكريات، أضعُ رأسي على الوسادة لتمتلئ بالدّموع، أغمضُ عينيّ، أشعرُ بوخزةٍ في عمقِ الفؤاد، أتحسسُ صورتكَ لأراها ما زالت في يدي، أشعرُ ببرودةٍ تسري فيَّ، ها هي الرُّوحُ تفارقُني، ما زلتُ أنطقُ باسمكَ، حتّى خرجتْ مع آخرِ حرفٍ من اسمك.

أميرة عبدالله

"رحلةٌ في اللّاوعي"

لا أب يرقصُ على أوتارِ النّاي لي، ولا أم تحتضنني بينَ نهديها، ولا أحد لي. وُلدتُ نفسي بنفسي واخترتُ اسمي من أبجديّةِ اللّازورد.

أرى نفسي في مكانٍ أشبه بدجى اللّيل، أرى ما لا تراهُ العيون، مشهدٌ حدثَ عندما كانَ لا وقتَ للوقت.. أرى عشرينَ قتيلاً ودَمهم ما زالَ على ثيابهم المعطّرة برائحةِ الياسمين، وخمسينَ جريحاً وأنينهم ما زالَ يتبعثرُ في الطّريق الرّمادي. اندهشتُ وذهبتُ مسرعةً إلى زنزانتي، تركتُ حارسي نائماً ولم أجدهُ، يبدو أنّهُ يفتشُّ عنّي. دخلتُ زنزانتي ورسمتُ تفاصيلَ المشهدِ على جدرانها، حاولتُ ترجمتهُ لكنَّ الشّعرَ اختفى، والنّثرَ ارتمى في مكانٍ بعيدٍ عن مخيّلتي وما وراءَ المدى.

ها هو حارسي قد عاد وسألني: ظننتكِ قُتلتِ؟

قلتُ لهُ: وأنا قُتلتُ، لكن لم أجد مكاناً أدفنُ فيهِ نفسي فعدتُ إلى زنزانتي أبحثُ عن حريّتي، لكنّي عدتُ بشيءٍ جديد.. أنا لستُ أنا، أنا شبحي القادم من معركةٍ ملوثةٍ بدماءِ الأبرياء.

قالَ لي: لماذا أنتِ هنا؟ قلتُ: الخيبةُ يا صاحبي قد تجعلكَ مريضاً نفسيّاً، هدفكَ الوحيد البحثُ عن عبثيّةِ اللّاشيء في جسدكَ لتكتشف من أنتَ، ولماذا وجودكَ في أبجديّةٍ لا تترجم.

قالَ لي: يبدو أنّكِ وصلتِ إلى مرحلةِ التّفكيرِ اللّامحدود واللّامعقول، سأذهبُ أنا إلى مكانٍ أرى فيهِ عبثيّةَ اللّاشيء هذه، لن أعود، بإمكانكِ الذّهابُ حيثُ أردتِ.

قلتُ لهُ: سأبقى هنا، أرتشفُ كأسَ نبيذي المعتادِ وأنتظرُ الموتَ البطيءَ كي يلتهمني، ويبقى شبحي في زنزانتي مع خيباتي المتراكمة.

أميرة عبدالله

"كَابُوسٌ"

لا شيءَ يعجبُني، أريدُ أنْ أرحلَ، أنْ أخرجَ منَ العالمِ الَّذي أُرغمتُ على العيشِ فيهِ. ها أنا في منتصفِ اللَّيلِ، ودَّعتُ غرفتي وحملتُ حقيبتي الَّتي وضعتُ بها بعضاً منَ العناءِ والتَّوقِ؛ نظرتُ إلى مرآتي لأرى وجهي الَّذي لوَّعهُ النَّوى، تركتُ ذاكرتي وترجَّلتُ حيثُ لا أعلمُ. مشيتُ في الشَّارعِ، وعندما شعرتُ أنِّي لستُ بخيرٍ توقَّفتُ عندَ السُّورِ، رفعتُ رأسي لأرى دجنةَ اللَّيلِ؛ شعرتُ بفتورٍ حتَّى في عقلي، ولَمْ يستوقفْني سوى صخرةٍ غريبةِ الأطوارِ، ذهبتُ وجلستُ أمامَها وكانَ الهلعُ يجتازُني. شعرتُ بمعاناةِ المخاطرةِ، لكنَّني قرَّرتُ أنْ أكونَ كالهيروينِ لا أشعرُ بشيءٍ؛ ومنْ شدَّةِ الكللِ وجدتُ نفسي أغرقُ في نومٍ عميقٍ بعدما كانَ للسَّهدِ النَّصيبُ الأكبرُ منْ ليلي.

استيقظتُ في الصَّباحِ ورأيتُ العَبَراتِ تسيلُ على وجنتيَّ، لكنَّني حاولتُ لملمةَ أتراحي لأكملَ مسيري نحو المجهولِ؛ ترجَّلتُ وبيدي حقيبةُ سفري، فرأيتُ امرأةً تبدو كالعَبْهَرَةِ، اقتربتُ منها وقلتُ لها: هلْ منْ مكانٍ لأنثى أرهقَها الكدُّ؟ لَمْ تقلْ شيئاً سوى أنَّها أشارتْ إلى الأمامِ وتركتني في حيرتي.

مشيتُ في ذلكَ الاتِّجاهِ، ولكنَّني لمْ أجدْ سوى مقبرةٍ؛ يبدو أنَّها أدركتْ ما أشعرُ بهِ.

جلستُ بجانبِ قبرٍ لا أعلمُ لِمَنْ، يبدو أنَّهُ لفتاةٍ عانتْ ما أعانيهِ، ولمْ أشعرْ بنفسي إلَّا وأنَّني أصرخُ بأعلى صوتي، وبقيتُ أصرخُ حتَّى كادتْ أحبالي الصَّوتيَّةُ تنفجرُ.

هنا توقَّفتُ، ولكنَّني أردتُ تغييرَ نفسي؛ أردتُ أنْ أحيا منْ جديدٍ وأشعرُ بنشوةِ الحياةِ، لذلكَ تركتُ حقيبتي معَ فؤادي وروحي لأرحلَ جسداً يحاولُ البدءَ منْ جديدٍ. وبعدما خرجتُ منْ بابِ المقبرةِ، لمْ يلفتْ انتباهي سوى أنَّني صحوتُ منْ كابوسي اللَّعينِ!

ولكنَّني أيقنتُ أنَّني سأبقى بهذا الشَّقاءِ، ولمْ أُشْفَ منْ جروحي؛ فانهمرتْ دموعي السَّاخنةُ، وعدتُ لغفوتي، ودعوتُ بأنْ لا أصحوَ لتكونَ هذهِ نهايتي.. ابتدأتُها بدموعٍ، واختتمتُها بدموعٍ.

أميرة عبدالله

"مَقْبَرَةٌ دُونَ جُثَثٍ"

هناكَ، داخلَ العقلِ، تحدثُ أشياءٌ وهميَّةٌ تذهبُ بنا إلى مكانٍ حيثُ اللَّاوعي؛ في ذلكَ العقلِ لا أحدَ يعلمُ ما يحدثُ وما يدورُ، وما تأثيرُ ذلكَ على أرواحنا وأفئدتنا. فيهِ يوجدُ سردابٌ منَ الخيالاتِ والأوهامِ، وصراعاتٌ تقودُنا حيثُ اللَّانهايةِ. وكلَّما كانَ عُمْقُ تفكيرِنا أكبرَ، كلَّما زادَ عمقُ الفجوةِ الدَّاخليَّةِ الَّتي تسبِّبُ عَبَراتٍ وآهاتٍ. وبتفكيرِنا اللَّامعقولِ سمحنا لتلافيفِ المُخِّ أنْ تنفجرَ لنصحوَ منْ أوهامِنا ومنْ عقلِنا المكبَّلِ بالقيودِ التَّراكميَّةِ.

وهنا سنعودُ لأنفسِنا لبضعةِ وقتٍ، ومنْ ثمَّ تعودُ هذهِ الرِّحلةُ الَّتي تكونُ نحوِ المجهولِ المعلومِ الَّذي لا ندركُهُ ولكنَّنا نثقُ بوجودِهِ. وهكذا؛ سيبقى التَّفكيرُ يحتلُّنا ولا قدرةَ لدينا على فعلِ أيِّ شيءٍ سوى السَّيرِ إلى اللَّاوعي، لربَّما نجدُ أنفسَنا هناكَ علَّنا نتخلَّصُ منْ ذلكَ الوهمِ الَّذي أسميتُهُ: مقبرةً دونَ جُثثٍ.

أميرة عبدالله

"خُدُوشٌ فِي عُمْقِ الذَّاكِرَةِ"

لَمْ يكنْ خطئي، لكنَّهُ كانَ خطأَ الفؤادِ الَّذي جعلني أتوهَّمُ بالحبِّ، وأعيشُ حالةً لاشعوريَّةً قادتْني نحو اللَّانهايةِ. سمحَ لي ذاكَ الفؤادُ الفتَّاكُ أنْ أغرقَ في بحرِ عينيكَ، وأبتكرُ أبجديَّةً أحكِي بها عنكَ؛ لكنَّ ما حدثَ كانَ غريباً، فكلُّ الحبِّ والتَّضحياتِ غدتْ كالغبارِ بالنِّسبةِ لكَ.

تركتني وسطَ حيرةٍ وتساؤلات: ما الذَّنبُ الَّذي اقترفتُهُ؟ وما السِّردابُ الَّذي ولجتُهُ في لحظةِ هلعٍ؟ لكنَّ إجاباتي باءتْ بالفشلِ، وأنا الآنَ لا أريدُ سوى أنْ أتحرَّرَ منْ ذاكرتي؛ أنْ أتخطَّى الوهمَ الَّذي رسمتُهُ في مخيِّلتي بأنَّ الحبَّ عظيمٌ، وأعودَ إلى الحقيقةِ المرَّةِ بأنَّ الحبَّ مخادعٌ.. هو منْ أهلكَ روحي، وأفقدني عقلي.

ولكنَّني الآنَ، وبعدما أدركتُ هولَ الفجيعةِ، قرَّرتُ أنْ أخلعَ عباءةَ الحبِّ، وأمضيَ في دربٍ مجهولٍ لأعثرَ على ذاكرةٍ جديدةٍ خاليةٍ من المشاعرِ والعواطفِ؛ فأنا وحدي منْ أهلكني الحبُّ، وحانتْ خُطا الانتقامِ. فهنيئاً لذاكرةٍ جديدةٍ تبحثُ عنْ دجنةِ اللَّيلِ لتختبئَ، والرَّحمةُ على ذاكرةٍ اقتُلِعَتْ منْ جذورِها لأنَّها أيقنتْ خطأَها؛ ولكنَّ ما فاتَ قدْ ماتَ، ولا شيءَ ينتظرُني سوى حفنةِ ترابٍ تتغمَّدُني لأُكْرَمَ بالدَّفنِ إلى الأبدِ.

أميرة عبدالله

"جُثَّة"

منذُ صغري وأنا أعيشُ حياةً كئيبةً، وما زالتْ صورةُ وجهيَ الشَّاحبِ محفورةً في أعماقِ ذاكرتي، ما بينَ ضجيجٍ وألمٍ ومتاهة. أسترجعُ قهقهاتِ مَن حولي حينَ ظنُّوا أنَّني مريضةٌ نفسيَّةٌ، حتَّى كرهتُ نفسي، وكرهتُ ملامحَ وجهيَ المتعبةَ، وبتُّ أشبهَ بجثَّةٍ هامدةٍ أنينُها خافتٌ. لكنَّ ما حدثَ معي كانَ غيرَ متوقَّعٍ؛ ففي حينِ كانَ انتحاري وشيكاً، جاءَ مَنِ استوطنَ فؤادي، مَن أحببتُه حبّاً عظيماً، وحدَهُ مَن أعادَ لي ابتسامتي، وهوَ مَنِ احتواني وجعلني أسيرةَ قلبِهِ. كنتُ أخشى فراقَهُ، ولا أحتملُ البعدَ عنْهُ؛ كانَ صوتُهُ كدثارٍ دافئٍ يمسحُ دموعي، لكنَّ الفراقَ جاءَ كريحٍ صرصرٍ جردتني منْ دِفْئِه.

لا أدري إنْ كانَ هذا الفراقُ أبديّاً أمْ أنَّهُ سيعودُ؛ هلْ يعودُ ليمسحَ دموعي المخبَّأةَ في مقلتي، أمْ أنَّهُ سيرحلُ بلا عودة؟ أنا لا أعلمُ، ولكنَّ ما أوقنُهُ أنَّهُ منذُ ولادتي كُتِبَ عليَّ الألمُ والعذابُ، ولا أدري ما الذَّنبُ الَّذي اقترفتُهُ لأعانيَ هكذا.

أريدُ الرَّحيلَ فأنا في عالمٍ غيرِ عالمي، فعالمي الحقيقيُّ ينحصرُ بينَ ذراعيهِ، ولا أدري إنْ كانَ حضنُهُ لي أمْ لسواي! لذلكَ أريدُ الابتعادَ، فلا طاقةَ لي على البقاءِ؛ روحي تطلبُ مفارقةَ جسدي، ونبضاتُ فؤادي تستجدي التَّوقُّفَ، لكنْ ما باليدِ حيلةٌ. سأبقى أنتظرُ موتي وأتمنَّى أنْ يكونَ قريباً؛ فعالمٌ بأكملِهِ لمْ يسعْني، وعسى أنْ يحويني ويضمَّني القبرُ.

أميرة عبد الله

"بينَ الغرقِ واللاغرقِ"

حينَ بدأتُ الكتابةَ ظننتُ أنَّ الحزنَ سينخلعُ منّي، لكنَّني لوهلةٍ أيقنتُ أنَّني غارقةٌ في بحرٍ لا نهايةَ لهُ، فكنتُ كأنَّني أخطُّ بدموعي لا بحبري.

نكتبُ لنبوحَ بأوجاعِنا، لكنَّني حينَ أشرعُ بخطِّ ما أخبِّئُهُ في فؤادي تموتُ الأبجديَّةُ.

أجلسُ حائرةً وأسألُ نفسي: هل الحروفُ عالقةٌ بينَ أحبالي الصَّوتيَّةِ؟ أمْ أنَّ الكلماتِ أسيرةٌ في فؤادي لا تخرجُ إلَّا معَ توقُّفِ النَّبضاتِ؟ شعرتُ بوخزةٍ في روحي.. لِمَ كلُّ هذا الألمِ؟ حتَّى الكتابةُ خانتْ وجعي، ورحلتْ منّي الكلماتُ إلى عالمِ اللاضياعِ، وتركتني مشوَّشةً، غارقةً بينَ الشَّيءِ واللاشيءِ.

الأمرُ لم يعدْ بحيلتي، فالغرقُ لا مهربَ منهُ، وأنا اخترتُ بحراً لا عودةَ لي منهُ، سأرتشفُ الأبجديَّةَ بدلاً منْ بوحِها، لربَّما أشعرُ بيقظةٍ بعدَ نومٍ عميقٍ، وسينتهي بي المطافُ غريقةً في بحرٍ اخترتُهُ في لحظةِ هلعٍ، لكنَّهُ قادَني نحو اللَّاوعي.

أميرة عبدالله

"ما بعدَ الحدودِ"

في زوايا اللَّيلِ، حينَ تسكنُ السَّماءُ، وتنامُ البيوتُ، وترتخي السِّتائرُ، وتنطفئُ الأضواءُ، أجلسُ بمفردي بينَ جدرانِ العزلةِ والألمِ، وأرجوحةِ الحنينِ والشَّوقِ.

أبدأُ بمحاورةِ قريني: مَن نحنُ يا تُرى؟ وما الجدوى من وجودِنا في دنيا كهذهِ؟ ولماذا كُتِبَ علينا الخَلْقُ إنْ كنَّا حتماً معذَّبينَ؟ ومِنْ بَيْنِ رُكامِ التَّساؤُلاتِ، يتمرَّدُ دماغي عن السَّيطرةِ، مفجِّراً عاصفةً من الانفعالِ لم أعهدْها من قبلُ، حتَّى إنَّ قريني نفسَهُ وقفَ عاجزاً عن إخمادِ ثورتي. لتجتاحَني فكرةٌ عاتيةٌ: أن ألقيَ بجسدي من النَّافذةِ! لوهلةٍ كدتُ أفعلُها، لولا أنَّ طيفاً تمثَّلَ لي بأنَّني قدْ أنجو من الموتِ لأقبعَ في غيبوبةٍ سريريَّةٍ، هناكَ، حيثُ ينطقُ الألمُ الصَّامتُ، وأغتربُ في عالمٍ دنيويٍّ غارقٍ بالسَّوادِ، لا أكونُ فيهِ بكماءَ، لكنَّني لا أجدُ صوتاً لأتحدَّثَ.

وبعدَ أن تلاشتْ غيمةُ التَّخيُّلاتِ، أبصرتُ قريني يرقبُني بفضولٍ ليرى ما أنا فاعلةٌ، فابتكرتُ للموتِ درباً آخرَ، جئتُ بنصلِ سكّينٍ حادٍّ، شققتُ بهِ صدري، ثمَّ انتزعتُ فؤادي وقذفتُهُ بعيداً.

ولم أكتفِ، بل أمرتُ قريني أن يحزَّ عنقي ويستأصلَ دماغي، فأمسكتُ بذاكَ العقلِ بحقدٍ طاغٍ، ورميتُهُ بألمٍ ساكنٍ.

فجأةً، استيقظتُ على صدى أنيني المكتومِ، لأدركَ أنَّ كلَّ ذلكَ كانَ كابوساً، وأنَّ الألمَ سيبقى رفيقي الأوحدَ. فلا باركَ اللّهُ بالشَّقاءِ والتَّفكيرِ، ولا أذاقَ أحداً مرارةَ العيشِ تحتَ وطأةِ العذابِ.

أميرة عبدالله

"رسالةُ المنتحرةِ"

في ليلةٍ تهجُّ بالبرودةِ، فتحتُ عينيَّ وما زالَ دجى اللَّيلِ يعكسُ على نافذةِ غرفتي، كانَ فؤادي قلقاً والحزنُ مكبوتٌ في روحي، بقيتُ جالسةً أنتظرُ رداً على رسالةٍ أرسلتُها في ذاكَ اللَّيلِ، أتى الصَّباحُ وأنا لستُ على ما يرامُ، تلقَّيتُ رسالةً جعلتني أغرقُ في غيبوبةٍ كانتْ ستبدو أبديَّةً، لكنّي أذكرُ حينها عندما فتحتُ مقلتيَّ كانَ جسدي هزيلاً كجثَّةٍ تتلقَّى الوداعَ وسطَ ضجيجٍ ودموعٍ، حينها كادتْ أحبالي الصَّوتيَّةُ أن تنفجرَ من شدَّةِ الصِّراخِ، تساءلتُ في نفسي أينَ هو الآنَ؟ من أنا بعدَ رحيلِهِ؟ لماذا لم يودِّعني؟ كيفَ سأكملُ حلمي دونَهُ؟ ركضتُ هاربةً والدُّموعُ تحتلُّ مقلتي، والنَّارُ تلتهمُ روحي وتوقدُها، كنتُ على وشكِ فقدانِ عقلي، لكنْ توقفتُ حينَ رأيتُ نفسي على بابِ مكتبِهِ، دخلتُ وأنا مفعمةٌ بكلِّ أنواعِ اليأسِ، كانَ الفقدُ ينهشُ رأسي وأضلعي، جلستُ على كرسيِّهِ وهناك رغبةٌ منّي في الانتحارِ، فتحتُ رسالةً وُضعتْ في كتابٍ أهديتُهُ إيَّاهُ، أمسكتُها بيديَّ المرتجفتينِ،

قرأتها مراراً وتكراراً بصوتي العالقِ بينَ أحبالي الصَّوتيَّة، سقتْ دموعي تلكَ الرِّسالةَ والتي كُتبَ في آخرِها "أحببتكِ ووعدتُّكِ أن أكونَ لكِ، لكنْ إذا لم يشأِ القدرُ أن يجمعَنا تذكَّري أنّي لن أكونَ لغيرِكِ، أشعرُ بثِقْلٍ في هذهِ الأيامِ وكأنَّ القبرَ بانتظاري، إذا حدثَ وقرأتِ رسالتي وكنتُ تحتَ التُّرابِ لا تحزني، لأنَّ دموعَكِ تقتلُني حتَّى وأنا لستُ موجوداً"، بعدَ انهياري قرَّرتُ الخروجَ آخذةً تلكَ الرِّسالةَ القاتلةَ، ذهبتُ إلى المقبرةِ وفؤادي مليءٌ بالهشاشةِ، وضعتُ يدي على قبرِهِ، بدأتُ بالبكاءِ، حادثتُهُ، أخبرتُهُ ماذا فعلَ رحيلُهُ، دموعي سقتْ قبرَهُ، ها قد أتى اللَّيلُ وما زالَ فؤادي يحترقُ، رأسي على القبرِ لكنّي لم أعدْ أنطقُ بكلمةٍ، فصوتي لم يعدْ يخرجُ بعدَ الآنَ، لم أنمْ حينها، قتلتني الذِّكرياتُ، صوتهُ يردِّدُ اسمي في أعماقِ مخيِّلَتي، ضحكتهُ مرسومةٌ في دماغي، انتهى اللَّيلُ، حاولتُ النُّهوضَ لكنْ في البدايةِ لم أكنْ أستطيعُ، حاولتُ جاهدةً فنهضتُ، لم أكنْ أعلمُ أنّي سأصبحُ عاجزةً، عاجزةٌ عن فعلِ أيِّ شيءٍ،

أصبحتُ بكماءَ، علمتُ أنَّ حياتي انتهتْ، جلستُ في غرفتي مع رسالتِهِ وذكرياتي، أنا لستُ أنا، ببعدِهِ أصبحتُ جثَّةً هامدةً، لكنّي ما زلتُ أنتظرُ رحيلي الأبديَّ، باتَ الأمرُ قريباً، شعرتُ بنهايتي تقتربُ، غفوتُ ودموعٌ تخنقُ الوسادةَ، ولم أصحُ بعدَها، لقدْ رحلتُ للقائِهِ، وكنتُ قدْ كتبتُ وصيَّةً لأولادٍ لم أُنْجِبْها، الفقدُ هو بحرٌ مليءٌ بالعجزِ، والعجزُ هو الموتُ البطيءُ، فسلامٌ على أفئدةٍ فقدتْ وما زالتْ تنبضُ التَّعبَ، أمَّا أنا، فرحيلُ أحدِهِمْ جعلني أعشقُ غريزةَ الانتحارِ، لألقاهُ في عالمٍ غيرِ عالمي، فجلستُ أنتظرُ الموتَ حتَّى أتى فأخذَني إليهِ، لم أكنْ خائفةً فالموتُ يشبهُهُ كلاهما رفضا أن يودِّعاني.

أميرة عبدالله

"غارقةٌ في أناي"

عندما كنتُ جالسةً أمامَ نافذةِ غرفتي المنعزلة عن ضجيجِ المكان، أستلهمُ مفرداتي من دجنةِ اللّيل، أبحثُ عن أبجديةٍ وسطَ نجومٍ خافتة.

كانَ ليلاً مخيفاً وكأنّهُ هاربٌ من ساعاته، لم أجدْ سوى عَبَراتٍ بدأتْ تنهملُ من مقلتيّ، شعرتُ بفتورٍ في عقلي، وبوخزةٍ في أعماقِ روحي؛ حاولتُ العودةَ إلى أناي لكنّي ما استطعت، كنتُ وحيدةً في ذاكَ اللّيل، أردتُ الهروبَ من نفسي إلى نفسي، وكأنّي شبحٌ لا يحبُّ مدينةَ الأشباح.

لساني تقيّأَ الحروفَ، وذاكرتي رمتني، ولم يبقَ في مخيّلتي سوى أنت؛ أحببتكَ حبّاً عظيماً، أنتَ مَن كتبتُ عنهُ ولهُ حتّى عجزتِ الحروفُ عنكَ، أنتَ مَن احتلَّ قلبي وأخذتني في رحلةٍ ما بينَ عقاربِ السّاعةِ لانتظاركَ.

حبّنا حكايةٌ سرمديةٌ فريدةٌ، حديثكَ هو ارتواءُ لظمأ فؤادي، وضحكتكَ هي دواءُ مرضي بكَ، ورغمَ حبّي وشغفي وهيامي بكَ، إلّا أنَّ الفِراقَ سرقني منكَ، آهٍ ليتَ البُعدَ التقاءُ!

رغمَ أنّي أصبحتُ في عالمٍ آخرَ بعدَ غيابكَ، عالمٍ مليءٍ بكلِّ الآهاتِ والصّرخاتِ، إلّا أنّني ما زلتُ أنتظركَ لأدخلَ بينَ ذراعيكَ بعدَ سنينٍ عجاف، أحدّقُ النّظرَ في عينيكَ وأرتجلُ أبجديةً أنثرها لكَ.

سأمسكُ يدكَ لنرحلَ إلى عالمِ اللّاوعي، فاللّاوعي في حبّنا ابتلاء.

أكتبُ لكَ رسائلَ أخبّئها إلى حينَ عودتكَ، فآملُ ألّا يطولَ الغيابُ، لأنَّ روحي تتآكلُ وشغافُ قلبي يعملُ بكفاءةٍ أكبر لمنيّتي، لكنَّ البقاءَ لي والعودةَ لكَ. رسالتي لن تقرأها الآن، فلتجدها في جوارِ قبري، فواللّه إنّي أنتظركَ، لكنَّ خروجَ الرّوح آتٍ لا محالة.

أميرة عبدالله

"حينَ يبدعُ الفِراق"

حينَ رحيلكَ، أُصِبتُ بشيءٍ أشبهَ بمرض، لكنَّ الفرقَ بسيط؛ لم يكن جسدي موجوعاً، ولا شعورٌ ببرودةٍ، لا الرّأسُ يؤلمني، ولا الحرارةُ تقتلني، كانَ الوجعُ في روحي، في شغافِ قلبي وغشاءِ التّامور.

لأوّلِ مرةٍ أقفُ عاجزةً إزاءَ ألمي، كانَ يفوقُ ألمَ مَن فقدَ شعرهُ لأجلِ مرض، كطاعونٍ اخترقَ أضلعي، كمنجليٍّ مزّقَ خافقي.

آهٍ إذا عجزَ اللّسانُ عن البوح! لهيبٌ احتلَّ حبالَي الصّوتيّةَ ومنعَ عنها الكلام، جفافٌ أصابَ جسدي، ورعشاتُ حمّى استقرّت فيّ؛ ثمانيةٌ وعشرونَ حرفاً لم تستطع التّعبيرَ عمّا كنتُ فيهِ. سوادٌ أحاطَ عيوني، وعجزٌ أصابني، كنتُ أصرخُ بصمتٍ هادئ، كمقيّدةٍ دونَ حبال.

لم أرَ يوماً مثلَ ذاكَ اليوم؛ لوعةٌ لا تريد الرّحيلَ عنّي، وهواجسُ الظّلامِ لا ترأفُ لحالي.

تمنّيتُ حينها أن أغادرَ دونَ أن أودّعَ أحداً، شوقٌ للقبرِ تعدّى قوّتي، وتحدٍّ بيني وبينَ نفسي أنَّ التّرابَ سيضمني.

أمّا أنا، فما زلتُ على أملٍ جارفٍ، أنتظرُ حتفي بحفنةِ ترابٍ تحتويني، ما زلتُ أنادي: فهل يحنُّ لي القبرُ يوماً؟

أميرة عبدالله

"رسالةٌ عالقة"

منذُ زمنٍ ليسَ ببعيدٍ، رحلتَ، فأصبحتْ روحي عبارةً عن أشلاءٍ ممزّقةٍ، ساعاتٌ لم أنمْ فيها، وأيّامٌ مرتْ كسنواتٍ عاقرةٍ، وأصبحتُ كالمبتورةِ يداه.

وحينَ بدأتُ تناسيكَ، حدثَ ما كانَ أشبهَ بحلمٍ، تلقّيتُ رسالةً منكَ بعدَ حينٍ من الوداعِ الأخيرِ.

لم أجدْ تفسيراً لملامحِ وجهي، تداخلتْ بينَ حزنٍ وألمٍ، حنينٍ واشتياقٍ، خذلانٍ وخيبةٍ.

قرأتها مراراً وتكراراً، تعمّقتُ في حروفها، واستنشقتُ رائحتكَ منها، تمنيتُ لو أنّي نسمةُ هواءٍ، لحرّكتُ مشاعركَ بدلاً من شعركَ، ولهمستُ في أذنكَ: أريدُ لُقياكَ، ولرافقتكَ إلى الأبدِ، ولأصبحتُ ظلّكَ الذي لا يفارقكَ، ويقينكَ الذي تخشاهُ.

كنتَ أنتَ، لكنْ بقيتُ أنا هنا وأنتَ هناكَ، أبحثُ عنكَ وتبحثُ عن طيفي.

مَن أنتَ فيّ؟ أأنتَ لائمي أم جارحي؟ لا أعلمُ، لكنَّ هناكَ سؤالاً واحداً يرتسمُ في ذاكرتي: متى اللّقاءُ وقد ضاعتْ بنا الطّرقاتُ؟ وحينَ لم أجدْ أيَّ إجابةٍ، والآلامُ بدأَ ظهورها في جسدي لا في نفسي فحسب، تمنّيتُ أن أتعوّدَ ألّا أتعوّدَ!

أميرة عبدالله

الخاتمة:

وهكذا انتهتِ الرحلةُ؛ تبعثرتِ النّصوصُ،
وجفَّ القلَمُ، وبقي في الروحِ ألمٌ لا يزولُ..
حتّى لو سجدتِ الأبجديّةُ!